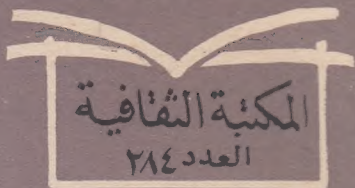


عدد ممتاز



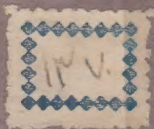
مطالعات و زکریات

أدب و تاریخ

لغة و أدب

تأليف

العوضي الوكيل



مكتبة
الدكتور القطب محمد القطب طبليّة
فهد محمد قطب شاعر محمد قطب
المعادي
القطب محمد طبليّة
مكتبة القطب

للمكتبة الثقافية
جامعة حيفا
٢٨٤

١٨ المجلد ١٩٧٣
مطالعات وذكريات
أدب وتاريخ

تأليف

العوضي الوكيل



BIBLIOTHECA ANDRINA
مكتبة الأندريّة
الطبعة الأولى ١٩٧٣
الطبعة الثانية ١٩٧٤

الإهداء

الى ذلك المستمع المجهول الذى عرفنى فى السعودية
وأنا أعتز فى بعض السنين فحيا هذه الأحاديث وأثنى
عليها .

والى ذلك المستمع المجهول الذى عرفنى فى البحرين
وأنا أزورها بدعوة كريمة من صاحب السمو أميرها العظيم
الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة ، فحيا هذه الأحاديث
وأثنى عليها واستزادنى منها بعد أن حملتها الاذاعة الكويتية
الى أسماعه فى أقصى المشرق العربى .

والى ذلك المستمع المجهول فى بيروت الذى قدم نفسه
على أنه واحد من ملايين المستمعين الى من اذاعة الكويت ثم
أطنب فى مدح هذا المنهج الاذاعى فى عرض الثقافة .

ثم الى اخوان كرام رضوا عن هذا العمل وأعلنوا الى
رضاءهم فى كتب حملها الى البريد .

أهدى هذا الكتاب اعتدادا بأرائهم واعتزازا بتقديرهم

العوضى الوكيل

مصر الجديدة (النزهة)

١٩٧٢/٧/١٧

كلمة

كان هذا الكتاب فى أصله أحاديث ألقيتها على الناس
من محطة الاذاعة بالكويت .

وقد توخيت البساطة فى عرض موضوعاتها لتحمل
التسلية الى جانب المتاع العقلى ، وحرصت فيما رويت عن
ذكرياتى أن تكون وفق هذين الشرطين لتستحق بعد ذلك أن
تجمع بين دفتى كتاب .

ان الحديث الاذاعى - فى رأى - وقد مارست الكتابة
الاذاعية عقوداً من السنين بل وتوليت الاشراف على بعض
المواد الاذاعية يجب فيه أن تراعى البساطة والتشويق معاً
ولا تكون البساطة حيث تفخم الكلمات وتتعاظم العبارات
ولا يكون التشويق حيث يعاد المعاد ويكرر المكرر ويذكر
المعروف ويبرز البارز .

واحسبني قد التزمت بشئ من ذلك فلئن كان ، فأنا
أديب ملتزم من أدباء ملتزمين وان لم يكن فوا أسفاه ان لم
أكن كذلك فادع الله لى أن أكون اياه .

العوضى الوكيل

مى ومحبوها

هذه قصة حب عجيبة من قصص الحب فى عصرنا ،
تقف فى أحد طرفيها فتاة واحدة من شهيرات عصرنا فى
الأدب ويقف فى الطرف الآخر جمهرة كبيرة من فطاحلة
الأدباء الذين ملأوا الدنيا وشغلوا الناس فى النصف الأول
من هذا القرن .

أما الفتاة فهى الآتسة : مى ، وأما الفطاحلة الآخرون
فمنهم الرافعى والعقاد واسماعيل صبرى وإبراهيم
عبد القادر المازنى . ونبدأ بلمحة عن مى ، ثم نتحدث عن
هذا الحب الذى أفاء على الأدب العربى الحديث كثيرا من
الخير .

مى هى الآتسة ماري زيادة ، ولدت فى الحادى عشر
من شهر فبراير سنة ألف وثمانمائة وست وثمانين بمدينة
الناصرة بفلسطين تلك المدينة التى قضى فيها سيدنا المسيح

أكثر أيام حياته ، وكان أبوها مسيحيين ذوى مذهبين مختلفين فى المسيحية فأمها كانت أرثوذكسية وكان أبوها من الموارنة ولكن ميا مع هذا لم تحس بهذا الفارق بين أبويها ولم تجد فى نفسها يوما ما تحيزا لأحد المذهبيين •

وفى سنة ألف وتسعمائة وأحدى عشرة نشرت ديوان شعر لها باللغة الفرنسية سمته أزاهير حلم باسم مستعار هو « ايزيس كويا » وهو ترجمة تقريبية لاسمها مارى زيادة •

وكانت قد هاجرت مع أبويها الى مصر قبل ذلك بقليل واحترف أبوها الصحافة واحترفت هى تدريس اللغة الفرنسية لبعض أبناء البيوتات وظهرت لها مقالات رائعة فى بعض مجلات ذلك العهد كالمحروسة والزهور ، ثم انصرفت الى الترجمة فترجمت كثيرا من ذخائر الانجليزية والفرنسية الى لغتنا العربية •

ونقترب من حديث الحب فى حياتها فنقول انها لأول مرة فى الشرق ، فتحت صالونها لاستقبال الأدباء والشعراء • وجددت لهم يوم الثلاثاء من كل أسبوع تستقبلهم وتحادثهم فى الأدب والشعر والفن والحياة ، وكانت تدعو بعضهم

بنفسها ، يقول اسماعيل صبرى فى الصالون وصاحبه :

روحى على بعض دور الحى حائمة
كظامىء الطير تواقا الى الماء
ان لم أمتع بعمى ناظرى غدا
لا كان صبحك يا يوم الثلاثاء

وقد جن الرافعى بها غراما فقد كان أحد شهود
ندوتها الجميلة ، وفكر - كما يروى الأستاذ المرحوم محمد
سعيد العريان فى كتابه حياة الرافعى - أن يتخذها ضرة
لزوجه بل انه كما يروى العريان أيضا فى المصدر نفسه
كتب أوراقا كالتميمة ظن أنها تجلب له قلب مى وتحببه
فيه وعلقها على سارية بأعلى منزله تتلاعب بها الريح •

وفى الأتمة مى كتب رسائل الأبحزان وأوراق الورد
والسحاب الأحمر وكان شديد الغيرة عليها فقد نار يوما
حين انصرفت الى غيره تكلمه وتركته بلا كلام ، وفى ثورة
الغضب كتب رسائل الأبحزان فى نحو أربعين يوما ، لأنه
كان ملتهب العاطفة ساعر الوجدان •

ومن الطرائف أن نذكر هنا أن الرافعى لم يستطع

كتمان حبه لى وغرامه العنيف بها فكتب اليها رسائل
يتحدث فيها بلا تورية ولا مواربة عن حبه اللاهب المستعر .
ولكن ميا لم تسترح الى هذا اللون من الرسائل ، فشكت
أمرها الى الأستاذ فؤاد صروف محرر مجلة المقتطف
واستشارته فى أن ترفع الأمر الى القضاء ، ولكنه أشار
عليها بغير ذلك فنزلت على رأيه .

وكان العقد أيضا من محيها ولكنه كان أكثر رزانة
من الراقى فقد طوى قلبه على حبه وسكت ، وبقيت ميا فى
مكانها من قلبه حتى زحزحتها سارة ، أو قل حتى أخرجتها
وقد تحدث العقد عن حبه لى بعد أن رمز لها باسم هند
فى كتابه سارة فقال : « وقد كان همام - يعنى نفسه - يحب
امراة أخرى حين التقى بسارة فى بيت ماريانا : يحبها
الحب الذى جعله ينتظر الرسالة أو حديث التليفون كما
ينتظر العاشق موعد اللقاء . وكانا كثيرا ما يتراسلان أو
يتحدثان . وكثيرا ما يتواعدان ويلتزم من الصمت الطويل
إثارا للتقية واجتنابا للقليل والقال وتهدة من جماع العاطفة
إذا خافا عليها الانقطاع ، ولكنهما فى جميع ذلك كانا أشبه
بالشجرتين منهما بالانسانين . يتلاقيان وكلاهما على جذوره

ويتلا مسان بأهداب الأغصان أو بنفجات النسيم العابر من
هذه الأوراق الى تلك الأوراق •

كانا يتناولان من الحب كل ما يتناوله العاشقان على
مسرح التمثيل ولا يزيدان • وكان يغازلها فتومى اليه
بأصبعها كالمنذرة المتوعدة فاذا نظر الى عينيها لم يدر
أستزيده أم تنهيه • ولكنه يدرى أن الزيادة ترتفع بالنفمة
الى مقام الشوز • •

وكان الدكتور زكي مبارك كذلك من المولعين بها ،
وكذلك كان الأستاذ سلامة موسى الذى وصفها وصفا قلميا
بديعا فى قوله : « هى مستديرة الوجه زجاء الحاجين وطفاء
الأهداب دعجاء العينين يتألق الذكاء فى بريقهما يجلل
وجهها الجميل شعر جثل أسحم وتلعب أبدا على شفتيها
ابتسامة الخفر •

وكان الدكتور شميل من المحبين المصرحين ،
وكذلك الشاعر ولى الدين يكن والصحافى داود بركات
رئيس تحرير صحيفة الأهرام القاهرية الأسبق • بل ان
كثيرا من الشعراء كان يتغزل فيها على البعد دون أن يكون

له مكان فى صالون يوم الثلاثاء ففيها يقول الشاعر اللبناني
شبلى الملاط :

وهل طافوا بمكتبها وحجوا
هناك فى الكنانة متداها

كان الله من سحر ودر
أتاح لى لاحظة وفاها

وشاور أمها لما براها
وشاور - يوم كونها - أباهها

فجاءت مى معجزة تنهى
من المعنى إليها ما تنهى

وكم من مرة مصر تمنى
وودت أنها احدى ظباها

ويروى أن جبران خليل جبران كان من بين محبيه
وانه كتب فيها بعض شعره ونثره * وعن صالون مى الأدبى
كتب الدكتور طه حسين : « الأدبية البرزة التى لا تحتجب
ولا تستخفى ولا تلقى الرجال عند المناسبات وحين تقتضى

الظروف لقيامهم • وانما تنظم الاجتماعات الأدبية التي
يشارك فيها الرجال والنساء اشتراكا حرا سمحا فيه كثير
جدا من الرقى والامتياز » •

وقد كتب الكاتبون حول حب مى ، وحول من أحبوا
ميا ، وبقي الرافعى والعقاد وحدهما يتنازعان حبها ، ولعل
هذا التنازع كان سببا من الأسباب الكثيرة التى ألّف
الرافعى من أجلها كتابه « على السفود » •

لكننا مع هذا لا نقطع بما كانت مى - رحمها الله -
تضمّره حيال كل منهما ، هل نصدق العقاد فى أنها ذهبت
إليه فى دار صحيفة البلاغ ، حيث كان يعمل ، حين أحسّت
بأنه أحب غيرها ، وأنه حاول إرضاءها وتقييل يدها فمنعته
من ذلك قائلة : دع يدي ودعنى ثم انحدرت من عينيها
دمعتان ... مسحتهما وانصرفت لا تلوى على شيء !

هل نصدق الرافعى بأنها كانت تعنيه يوم أهدت إليه
كتابها « ظلمات وأشعة » وفيه فصل عنوانه « انت أيها
الغريب » تقول فيه :

« سأستمع الى جميع الأصوات على أعثر فيها على

لهجة صوتك • وسأبتسم في المرأة ابتسامتي في حضورك،
سأتحول عنك الى نفسى لأفكر فيك وفي غيابك سأتحول
عن الآخرين اليك لأفكر فيك •

وقد ظن الرافعي أنها أهدت اليه هذا الكتاب خاصة
ليقرأ فيه هذا الفصل اشارة منها الى أنه المعنى به •

لكننا مع هذا لا نستطيع أن نحدد ذلك المحبوب الذى
ملك قلب مى من هؤلاء الفطاحل الأدباء ، فهى لم تبج
باسمه لأحد ولا كتبت شيئاً يدل دلالة قاطعة عليه واذا كان
الشاعر القديم قد قال :

وكل يدعى وصلاً بليلى ولى لا تقر لهم بذاكا

فان لىلى فى قصتنا هذه لم تقر ولم تنكر وتركت
السائلين والباحثين فى عماية من الأمر ليس لها كاشف •

تزييف التاريخ

منذ حين قرأت فى احدى المجلات الأسبوعية
استطلاعاً صحفياً وهو ذلك الذى يسمونه « ريبورتاج »
عن أحد الأدباء المعاصرين ، وقد امتلأ الاستطلاع بأشياء
وحوادث لا تتصل بالواقع ، الا كما يمكن أن تتصل السماء
بالأرض ولكن كاتب الاستطلاع الذى أراد أن يطرف
قراءه بطرف من الحديث لم يتوخ فيه الدقة والأمانة بقدر
ما توحى خلق الطرائف والنوادر والحكايات •

ولسوف يجرى مؤرخو الآداب بعد عصرنا فيكتبون
عن أمثال هذا الأديب ويترجمون حياته وأدبه ويجعلون
من بين اسنادهم مثل هذا الاستطلاع الصحفى ويجرى من
بعدهم خلق آخرون ، فيحاولون المطابقة بين حياة هذا
الأديب وأدبه فيبدأ شكهم فى صحة ما ورد فى الاستطلاع
وهكذا تقوم قضية من قضايا الأدب •

ذكرت هذا وأنا أنظر في خبرين عن وفاة شاعرين
من أعظم شعراء العربية في العصر العباسي ان لم يكونا
أعظم شعرائها فيه وفي غيره من العصور ، ذانكم الشاعران
هما ابن الرومي ، وأبو الطيب المتنبى لقد قتل أبو الطيب
ما في ذلك شك ولكن ظروف قتله وآخر كلماته وآخر
ما جرى من الحديث بينه وبين غلمانه قد لعب بها خيال
الترجمين ورواة حياة الشاعر وشعره ، فجعل منها قصة
تستطاب حكايتها في مجالس المتأدبين وسمر السمار .

ومات ابن الرومي وكان من اللازم أن يدخل حياته
ومماته خيال المترجمين ورواة حياة الشاعر وشعره ،
فخلقوا من موته قصة تستطاب حكايتها في مجالس المتأدبين
وسمر السمار . وحاولوا التقريب بين ذلك وبين بعض ما قال
من الشعر في أيامه الأخيرة لتكون القصة أكثر حبكة
وأعظم تشويقا ، فأما أبو الطيب المتنبى فقد رووا أنه كان
عائدا من بلاد فارس وبينه وبين بغداد ستة عشر فرسخا .
قرب الصافية وهناك خرج عليه فاتك بن أبي جهل الأسدي
في نيف وثلاثين فارسا رامحين وناشين أي انهم كانوا
يحملون رماحا للطنع وسهاما يرمونها من بعيد ، وكان

فاتك هذا يترى بأبى الطيب لينتقم لابن أخته ضبة الذى
هجاه المتنبى بقصيدة عنيفة ، شديدة العنف • فلما رأى
المتنبى كثرة خصومه وقوتهم وتسليحهم رأى من الحزم
ألا يواجههم فى معركة وأن يسارع بالفرار لكن غلامه
عنه تعينا شديدا وقال له : كيف تفر وأنت القاتل :

الخيل والليل واليبيداء تعرفنى
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقال المتنبى له : قتلتنى وثنى عنان فرسه الى وراء
ولاقى أعداءه فاقتلوا حتى قتلوه وقتلوا جميع من معه •

ويجب ، لكى نصدق هذا الخبر ، أن نفترض أن
هذا الغلام أكثر حمية وشجاعة وخوفا من عار الفرار من
المتنبى وهو أمر ينفية ما نعلمه من خلق المتنبى وما نعرفه
عن شجاعته •

ثم نتساءل : اذا كان المتنبى ومن معه قتلوا جميعا كما
يقول الرواة فمن الذى نقل هذا الحديث الذى جرى
بالطبع قبل المعركة فتلحقه رواية الأخبار • ان هذا الحديث
اذا كان قد تم بين المتنبى وغلامه فقد ضاعت تفصيلاته بموت

الجميع فقد مات طرفا الحديث ومات الشهود ، ولم يبق
بعد ذلك الا خيال الرواة .

وأما ابن الرومي فأمره أعجب ، واليك ما قاله ابن
خلكان في شأن وفاته :

« وتوفي يوم الأربعاء لليلتين بقيت من جمادى الأولى
سنة ثلاث وثمانين وقيل أربع وثمانين وقيل ست وسبعين
ومائتين ببغداد ودفن في مقبرة باب البستان ، وكان سبب
موته - رحمه الله تعالى - ان الوزير أبا الحسين القاسم ابن
عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الامام المعتضد كان
يخاف من هجوه وفلتات لسانه بالفحش فدرس عليه ابن
فراش فأطعمه خشكناجة مسمومة وهو في مجلسه فلما
أكملها أحس بالسقم فقام ، فقال له الوزير : الى أين تذهب:
فقال: الى الموضع الذي بعثتني اليه فقال: سلم لي على والدي ،
فقال له ما طريقى على النار ، وخرج من مجلسه وأتى منزله
وأقام أياما ومات . وكان الطبيب يتردد اليه ويعالجه بالأدوية
النافعة للسقم فزعم أنه غلط في بعض العقاقير . وقال ابراهيم
ابن محمد بن عرفة الأزدي المعروف بنفطويه رأيت ابن
الرومي يجود بنفسه فقلت له ما حالك ؟ فأشدد :

غلط الطيب على غلطة مورد
عجزت موارد عن الاصدار
والناس يلحون الطيب وانما
خطأ الطيب اصابة الأقدار

هذه هي قصة وفاة ابن الرومي كما وردت في كتب
تواريخ الأدب وقد همنى منذ نحو ثلاثين سنة أن أحقق
هذه القصة بتوجيه وإرشاد من الأستاذ عباس محمود العقاد
رحمه الله .

وبدأت التحقيق بيته اللذين قالهما في مرض وفاته
وقد زاره بعض الناس وكان مصابا بمرض سلس البول
فقال كأنما يعتذر لهم عما رأوا من وساخة ثيابه وفراشه :

غدا ينقطع البول
ويمضي الهول والعول
ألا ابن لقياء الله
هـ هول دونه الهول

وقد سألت بعض كبار الأطباء في عصرنا ومنهم
الدكتور عبد العزيز اسماعيل والدكتور سيد عنت عن هذا

الموضوع فقررنا أنه لا توجد مادة سامة تطلق البول وأن
سلس البول هذا؛ إنما كان ظاهرة لمرض آخر هو غير السم
بلا خلاف .

من هنا بدأ الشك في صحة الرواية حول وفاة ابن
الرومي وقوى هذا الشك بتفاصيل الحوار المزعوم بينه
وبين الوزير الذي أراد أن يقتله فإن الانسان المسموم الذي
أكل سما وظهرت عليه أعراضه لا يكون في حال يمكن
معه أن يطلق النكتة والسخرية ، وأن يقول للوزير انك
تريد أن تحملنى السلام الى أبيك وأبوك في النار ولكن
طريقي إنما هو الى الجنة لا الى النار ، وابن الرومي
لا يستطيع مثل هذا الحديث وهو مسموم . وإذا كان
الثابت من أشعاره - وهى أوثق مصادر حياته - انه مرض
طويلا وانه لازم الفراش طويلا ، فقد وهنت رواية السم .
وضعت واستحقت أن تطرح من حياة هذا الشاعر الكبير
وان تكون من وضع أولئك الذين يزينون للناس مايكتبون
بالتلفيق والتزويق ليروج عند الناس وينفق لدى السامعين
ومن الواجب أن نفرق في تاريخ الأدب بين الطرائف
المختلقة والوقائع الصحيحة .

ابن مفرغ الحميرى

هذا شاعر من شعراء العصر الأموى ، اشتهر بالغزل والهجاء معا ، واتصف بعدم المبالاة فهجا الخلفاء والأمراء ، واشتدوا فى طلبه ، فعاش شريدا ، طريدا ، ثم ظفروا به ؛ لكنهم لم يقتلوه ، رعاية لبعض أقاربه ، فاكثفوا بتأديبه ، بناء على تعليمات معاوية ، فكان التأديب قاسيا ؛ بل انه كان شديد القسوة ، ذلك الشاعر هو يزيد بن مفرغ صاحب البيت المشهور :

العيد يقرع بالمصا
والحر تكفيه الملامة

وقد صحب عباد بن زياد بن أبيه ، ولكن عبادا لم يستطع - لبخل فيه أو غلظ - أن يرضى عنه الشاعر ، ففارقه الشاعر ، وأخذ يذيع فى الناس أهاجيه فى عباد ، بل ويكتبها على الحيطان ، واستغل قصة الخاق زياد ابن أبيه بأبى سفينان أسوأ استغلال ، وأخذ منها مادة دسمة

لهجاء ابنه عباد ، ومعروف ان استلحاق نسب زياد لأبي
سفيان اقتضى أن يشهد قوم على أبي سفيان بالزنا مع سمية
أم زياد ، وفي ذلك يقول ابن مفرغ مخاطبا معاوية عم
عباد :

ألا أبلغ معاوية بن صخر
مغلغلة عن الرجل اليماني

أتغضب ان يقال أبوك عف
وترضى ان يقال أبوك زان

فأشهد ان رحمك من زياد
كرحم الفيل من ولد الأمان

وأشهد أنها ولدت زيادا
وصخر من سمية غير دان

وقد ماتت سمية قبل أن يلحق ابنها بنسب أبي سفيان
ففي ذلك يقول ابن مفرغ :

فكر ففي ذاك ان فكرت معتبر
هل نلت مكرمة الا بتأخير

عاشت سمية ما عاشت وما علمت

ان ابنها من قریش فی الجمہور

وحین ظفروا بالشاعر کلفوه أن يحو بأظافره وأنامله
ما كتب على الجدران من الهجاء فما زال يمحوها حتى
فسدت أنامله وأورثته ألما شديدا • لكنهم مع هذا لم يكتفوا
بهذا العقاب على شدته فسقوه شرابا مسهلا ، وحملوه على
حمار ، وقرنوا به خنزيرة سقيت هي الأخرى شرابا
مسهلا ثم طافوا به شوارع البصرة وهو يسهل على نفسه
وتسهل عليه الخنزيرة ، وهو في كرب عظيم لما به ، وقد
أغمى عليه من شدة الاسهال فلما أفاق كان أول ما نطق به
هذا البيت فيمن عذبه :

يفسل الماء ما فعلت وقولي

راسخ منك في العظام البوالى

وكان عباد - المهجو - كبير اللحية - يقول ابن
خلكان - كأنها جوالق ، فدخلت فيها الريح فنفشتها فقال
ابن مفرغ :

ألا ليت اللحي كانت حشيشنا

فنعلفها خيول المسلمينا

وكان قبل اصطحابه عبدا هذا في صحبة سعيد ابن
عثمان بن عفان ، ولكنه فارقه الى عباد فكان منه البخل
وكان هذا الهجاء :

لهفى على الأمر الذى
كانت عواقبه ندامه
تركى سعيدا ذا الندى
واليت ترفقه الدعامة
ليثا اذا شهد الوغى
ترك الهوى ومضى أمامه
فتحت سمرقند له
وبنى بعرضتها خيامه
وثبت عبد بنى علا
ج . . . تلك أشرط القيامة
جاءت به حبشية
سكاء تحسبها نعامه

وابن مفرغ هذا من بلدة باليمن اسمها « تبالة »
وهى أول ولاية وليها الحجاج بن يوسف الثقفى ، وحين

مضى اليها ، سأل عنها فقالوا له إنها وراء تلك الأكمة فقال
لا خير في ولاية تسترها أكمة ورجع عنها محقرا لها
ونزكها وضرب بها - بعد ذلك - المثل في الهوان وحقارة
الشأن فقالوا : أهون من تبالة على الحجاج !

لكن ابن مفرغ هذا ليس شرا كله وليس هجاء كله،
فله في الحماسة شعر وفي الغزل ومنه تلك الأبيات
المشهورة :

الإ طرقتنا آخر الليل فزئب
عليك سلام هل لمات مطلب

وقالت تعجبنا ولا تقربنا
فكيف وأتم حاجتي أتعجب
يقولون هل بعد الثلاثين ملعب
فقلت وهل قبل الثلاثين ملعب

لقد جل خطب الشيب ان لان كلما
بدت شية يعرى من اللهو مركب
لكنه لم يتركها خالصة لغرضها الجميل فأتبعها بهذين
البيتين في هجاء بعض خصومه وما كان أكثرهم :

فلو أن لحمى اذ وهى لعبت به
كرام ملوك أو أسود وأذؤب
لهون من وجدى وسلّى مصييتى
ولكنما أودى بلحمى أكلب

وحتى اسمه ابن مفرغ هذا ، فست حوله القصص
الضحكة أو الساخرة ، فجده فى احدى القصص راهن
على سقاء من لبن أن يشربه كله وكان السقاء عظيما فشربه
حتى أفرغه فى بطنه فلم يبق منه شيئا فسموه من يومها
المفرغ ، أو هو كان حدادا باليمن فعمل لامرأة قفلا وشرط
عليها أن يكون أجره زقا مملوءا بلبن فجاءته به ، فشرب
منه ووضعها فاستعجلت المرأة زقها وقالت لا بد منه الآن
فأخذه ففرغه فى جوفه مرة واحدة فقالت المرأة مستعجبة
انك لمفرغ كله فشاع اللقب واتحدر منه الى هذا الحفيد
المسكين .

وتأتى لابن مفرغ هذا سيرة فى تاريخ الأداب ذلك
انه هو الذى وضع سيرة تبع وأشعاره ولكنى لم أستطرد
فى البحث عن هذه السيرة لعلها تكون قصة فنية ذات معالم
وأشراط أدبية يستفيد منها أصحاب الدراسات الأدبية .

وقد حاول ابن مفرغ يوم أرادہ خصومه من ذوی
السلطان أن يستجير برجال من ذوی الکرامة والقدر فی
عصره ، فذهب الی الأحنف بن قیس - الذی یضرب به
المثل فی الحلم - فقال له الأحنف انی لا أجیر علی ابن
مسمیة - یعنی زیادا - فاعزله وانما یجیر الرجل علی عشیرته
واما علی سلطانه فلا ، ولم یرض أحد أن یجیره لكن رجلا
فی البصرة اسمه المنذر بن الجارود العبدي رق له فأجاره -
وكانت بنته زوجة لعید الله شقیق عباد بن زیاد - لكن
عید الله لم یقبل هذا الجوار من صهره وهدد بطلاق ابنته
ان هو أصر علی هذا الجوار •

العبقرية العربية

هذا رجل أعرابي أُمى ، لا يعرف القراءة والكتابة ، كان يعيش في العصر الأموي يبهز الناس خطيباً ، ويسحرهم متحدثاً ، ويشتهر بالفصاحة والبلاغة والعلم بأسرار هذه اللغة الشريفة في غرائب كلماتها ومؤديات كناياتها ويضرب به المثل ويدخل اسمه أمثلة أهل النحو ويقولون عنه انه « أحد بلغاء الدهر » . . .

هذا الأعرابي الأمى العظيم يعرفه التاريخ الأدبي باسم « ابن القرية » ولكن اسمه كان « أيوب بن زيد » ينتهى نسبه الأعلى الى عدنان ، جد النبي صلى الله عليه وسلم . . والقرية أمه أو جدته وهذا أيضا كان لقباً لها وأما اسمها فقد كان « جماعة بنت جسم » يرتفع نسبها حتى يصل الى الخزرج .

وكان أيوب هذا عبقرية من عبقریات العرب ، مطمورة في رمال البادية ، حتى كشفت إحدى الصدف

عنها ، قالوا : أصابته السنة - أى القحط وانجذب - فقدم
عين التمر وعليها عامل للحجاج ، وكان العامل يسهط
مائدته لمن يشاء أن يأكل فى الغداء والعشاء ، فوقف ابن
القرية بالباب يسأل عن أفواج الداخلين الى أين يدخلون ؟
فلما قيل له انهم يدخلون الى طعام الأمير ، دخل معهم
فأصاب غداءه ثم سأل : أكل يوم يصنع الأمير ما أرى ؟ ف قيل
له نعم فى الغداء والعشاء ، فلم يتحول عن هذا السماط
الممدود حتى كان يوم ذهب فيه الى حيث كان يجد الطعام
فلم يجد أميرا ولا طعاما ، فسأل فقالوا له : لقد اغتم الأمير
لكتاب ورد عليه من الحجج عربى غريب لا يدري ماهو ؟
فندب نفسه لتفسيره وبيان غريبه فقرأ عليه الكتاب ففسره
وعرفه جميع ما فيه ، وأملى على أحد كتاب الأمير جوابه
فلما وصل الكتاب الى الحجاج رأى جوابا عربيا غريبا ،
ليس للعامل بمثل بلاغته وفصاحته عهد فدعا برسائله
السابقة ، وأيقن منها أن الكتاب الجديد ليس من كتابة
هذا العامل فكتب اليه رسالة موجزة يقول فيها : أما بعد فقد
أتانى كتابك بعيدا من جوابك بمنطق غيرك فاذا نظرت فى
كتابى هذا فلا تضعه من يدك حتى تبعث الى الرجل الذى

صدر لك الكتاب والسلام . وذهب ابن القرية الى الحجاج
ثم مضى الى الخليفة عبد الملك وطبقت شهرته بعد ذلك
الآفاق .

وهذا الذى تحدثنا به الآن عن ابن القرية يمثل
الفصل الأول من حياة هذا الخطيب المفوه أما بقية فصول
هذه الحياة ، وسنلم بها بعد حين ، لا تقل عن هذا الفصل
اثارة وغرابة مما حمل بعض الناس كالأصمعى أن ينكر
وجود هذه الشخصية يروى عنه صاحب الأغاني انه كان
يقول :

رجلان ما عرفا قط فى الدنيا الا باسم : مجنون بنى
عامر وابن القرية ، فانهما وضعهما الرواة .

أما بقية فصول هذه الحياة ، فهى ان الحجاج قد بعث
به الى رجل كان قد شق العصا وخلع الطاعة ، بعث به اليه
لعله يصلحه ويرده الى الجادة بكلمة بليغة أو خطبة ساحرة
فلما دخل ابن القرية عليه أبى أن يسمع منه الا أن يعلن
خلع عبد الملك من الخلافة وسب الحجاج بن يوسف أو
يأمر بقتله ولم يجد ابن القرية مفرا من الاذعان فقام
وخطب وخلع عبد الملك وسب الحجاج وخلف أن يعود الى

الحجاج بعدها فأقام لدى هذا المتمرد ثم ما لبث الحجاج أن ظفرت قواته بهذا المتمرد ووقع ابن القرية أسيرا في أيدي رجال الحجاج فساقوه اليه وتضطرب الروايات في آخر حديث جرى بينهما بعضها يروي ان الحجاج سأل عن القبائل والمواطن والديار فأجابه بعبارات مزدوجة فيها سجع جميل كأن يقول : ان أهل اليمن أهل سمع وطاعة ولزوم للجماعة وكأن يقول عن قريش :

أعظم العرب أحلاما وأكرمها مقاما ، وعن بنى عامر ابن صعصعة : أطولها رماحا وأكرمها صباحا ، وعن الهنبي سليم أعظمها مجالس وأكرمها محابس ، وعن ثقيف أكرمها جدودا وأكثرها وفودا ، وعن البصرة شتاؤها جليد وحرها شديد وماؤها ملح وحربها صلح ، وعن الكوفة ارتفعت عن بحر البحر وسفلت عن برد الشام فطاب ليلها وكثر خيرها وعن مدينة واسط : جنة ، بين حماة وكنة ، والكنة امرأة الإبن أبو الأخ وهو يعنى بحماة وكنتها الكوفة والبصرة . ويروي بعضها أن الحجاج سأل فقال : العرب تزعم أن لكل شيء آفة فما آفة الحلم قيل : الغضب ، قال فما آفة الحجاج بن يوسف فقال ابن القرية : أصليح الله الأمير

لا آفة لمن كرم حسبه وطاب نسيه وزكا فرعه ففسال له
الطجاج وكأنما كان يعارضه في استجابه : امتلأت شقافا
وأظهرت نفاقاً ، ثم أمر به فضرب عنقه وانتهت حياة الرجل
وكانت في غرابتها وأثرتها سببا في أن ينكر بعض الناس
وجوده أو يحسبوه شخصية خيالية من ابتداع الرواة
والقصاصين .

ونجد المجال مناسباً للحديث عن معنى كلمة الأُمِّي
التي وردت في القرآن الكريم أكثر من مرة ووصف بها
سيد المخلوق صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى : « الذين
يتبعون النبي الأُمِّي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة
والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم
الطيبات ويحرم عليهم الخبائث » .

« لا آله الا هو يحيى ويميت فأمنوا بالله ورسوله النبي
الأُمِّي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » .
« هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته
ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى
ضلال ميين » .

ونبحث عن كلمة الأُمِّي في المعجم فنجد أنَّ الأُمِّي

من لا يكتب أو من على خلقه الأمة لم يتعلم الكتاب وهو
باقى على جبلته وهو - فيما قالت المعاجم - نسبة الى الأم أو
الى الأمة .

وفى أحدث كتب العقاد «الاسلام دعوة عالمية» الذى
جفموا فيه بعض مقالاته مقال عن معنى كلمة الأُميين ، وهو
يقول : ان أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين أجمعين كانوا
الى ما بعد ظهور الدعوة الاسلامية يقسمون العالم الى
قسمين :

بنى اسرائيل والأمم التى ليست منهم ويزعم اليهود
خاصة أن بنى اسرائيل وحدهم هم أهل النبوة والرسالة
الذين اختصهم الله دون سواهم من العالمين بالكتب المنزلة
والأنبياء المرسلين وان من عداهم من الأمم لا نبوة فيهم ولا
كتاب لهم وليسوا من الموعودين بالهداية والرضوان .

وقد وردت كلمة الأُميين بهذا المعنى فى جميع كتب
اليهود وهى ترد دائما فى مقابلة اليهود .

هذا هو أصل الكلمة مشتقا من الأمة بهنذا المعنى
ومستعملا فيما عداه استعارة والأُمى اذن كلمة صحيحة على

كلتا الناحيتين ولكن النبي العربي صلى الله عليه وسلم لم يكن أمياً. فى القرآن الكريم الا بمعنى واحد منهما هو انه من أمة غير أمة اليهود وقد يكون صلوات الله وسلامه عليه أمياً بالمعنى الثانى ولكن القرآن الكريم لم يشر الى هذا المعنى فى المواضع الستة التى وردت فيها كلمة الأمى والأميين لأنها جاءت جميعاً لترد على دعوى اليهود أن يكون نبي من غيرهم أو كتاب يوحى به الى سواهم . وان كان مفسر عظيم كالقرطبى قد قال ان الأمى هو المنسوب الى الأمة الأمية التى هى على أصل ولادتها لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها قاله ابن عزيز وروى عن ابن عباس رضى الله عنه انه قال : كان نبيكم صلى الله عليه وسلم أمياً لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب وذكر أيضاً أن الأمى قد يكون منسوباً الى أم القرى وهى مكة .

ويختتم العقاد بحثه القيم بهذه البارة : وعلينا أن نفهم أن النبي العربي والنبي الأمى بمعنى واحد وأنه عليه السلام لم يكن يتلو كتاباً قبل الكتاب المنزل عليه ولا كان يخطه بيمينه « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذن لارتاب المبطلون » صدق الله العظيم وصدق

سبحانه اذ قال : « اقل ما أوحى اليك من الكتاب » فليتدبر
هذا الأمر بالتلاوة من يتوهم ان التلاوة تنقض معنى الأمية
على وجه من الوجوه •

هذه هي أمية الرسول صلى الله عليه وسلم ، أما أمية
ابن القرية التي ساقنا اليها هذا البحث أو ساقنا اليه فهي
الأمية بمعناها الثانى معنى عدم معرفة القراءة والكتابة •

المتنبى يتحدث عن نفسه

نريد أن نقف مع الشاعر الذى ملأ الدنيا وشغل
الناس ، ولا يزال يملؤها ويشغلهم ، مع أبى الطيب المتنبى ،
ولن نستطيع بالطبع أن نعرضه كله ، بل اتنا سنأخذ طرفا
يسيرا من شعره نتحدث به عنه ذلك هو احساس المتنبى
بعظمة شاعريته وتفوق شعره على أشعار غيره من الناس •
ولئن كان هذا يدخل فى باب الفخر فإنه فخر يمتاز به
شعر المتنبى على فخر غيره من الشعراء والمتنبى هو الذى
يقول :

أطع عنك تشبيهى بما وكأنه

فما أحد فوقى ولا أحد مثلى

وهو لا يقول من الشعر الا أصعب القصائد مركبا ،
وأدق المعانى مأخذا ، وأعسرها على غيره من الشعراء ،
أليس هو القائل :

أراكض معوصات الشعر قمرا
فأقتلها وغيري في الطراد

ونبدأ بقصة لطيفة من لطائف قصص المتنبي
وما أكثر قصصه اللطائف ، تدخل في مجال اعتداده بشعره
وفخاره بفنه ذلك ان رجلا من الأمراء يدعى عليا بن محمد
ابن مكرم التيمي أرسل الى المتنبي بعض الهدايا والعطايا ،
وكأنه كان يطلب منه مدحة يخلد بها اسمه على الأيام
وأرسل هذه الهدايا والعطايا مع وكيل له ، كان كما وصفه
مؤرخو الآداب يتعرض للشعر ، فحمل الرسول الألفاف
الى أبي الطيب ، لكنه حمل معها بعض شعره وكان غنا تافها
من مثل قوله :

فؤادى قد انصدع
وضرسى قد انقلع
وللىالى ععلى
قد انهوى وما رجع
يا حب ظبى غنسج
كالبدر لما ان طلع

فقلت ته ته ته وته
 فقال لي مـسر يا لكم
 هات قطع ثم قطع
 ثم قطع ثم قطع
 وضع بكفى وفى
 جيبى ادعك ان تَصْع

وفوجئ المتنبى بالرسول الشاعر مفاجأة ، لكنه لم
 يرد أن يؤذى مشاعره فهو رسول أحد الأمراء وضمن
 المدحة المطلوبة أبياتا ساخرة متهكمة لازعة تحدث فيها عن
 هذا الشويعر الذى يقتحم مهابة أمير شعراء عصره ، قال
 أبو الطيب فى هذه الأبيات :

تيمنى وكيلك مادحا لى
 وأسمنى من الشعر الغريا
 ولست بمنكر منك الهدايا
 ولكن زدتنى فيها أديا
 فأجرك الاله على عليل
 بعثت الى المسيح به طيبا

انه يقول للأمير لقد وصلتني الهدايا كاملة غير
منقوصة ، بل انها وصلت مزيدة ، والزيادة هي هذا
الأديب الذى أنشدنى بعض أشعاره • وهذه كما نرى
سخرية لازعة •

ويقول للأمير كذلك ، أجرك الله على هذا العليل فقد
بعث طبيباً الى المسيح الذى يرى الأكمه والأبرص
ويحى الموتى بأذن الله ، وهو طب يعاينه كل أطباء الدنيا
فما أعجب هذا الطبيب العليل الذى يريد أن يعالج بعليه
وبعلته معا ، سيدنا المسيح •

والحق أن الرسول يستحق كل هذا التهكم من سيد
الشعراء وكان يجب عليه أن يعلم انه موفد الى المتنبى •

وشعر المتنبى هو فى الصدارة من الأشياء التى يفتخر
بها لقد افتخر بشجاعته وقوته وخوضه الفمرات وافتخر
بأخلاقه ولكن فخاره بشعره ، كان نمطا من الشعر عاليا •
واسمعوا الدالية العظيمة فى سيف الدولة التى يتحدث
فيها عن نفسه وعن شعره :

وما الدهر الا من رواة قصائدى

اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسير مشمرا
وغنى به من لا يغنى مغسدا
أجزنى اذا أنشدت شعرا فانما
بشعرى أذاك الماسدون مرددا
ودع كل صوت غير صوتى فأننى
أنا الطائر المحكى والآخر الصدى
وهو يتمادى فيوازن بينه وبين سائر مادحى سيف
الدولة :

ليس قولى فى شمس فعلك كالشمس
س ولكن فى الشمس كالاشراق
شاعر المجد خدنه شاعر اللفظ
كلانا رب المعانى الدقاق
لم تزل تسمع المديح ولكن
سهل الجياد غير النهاق

فهم ينهقون وهو يسهل وشتان بين النهاق والسهيل •
بل انه يعتبر الشعراء بخيره يقدمون بأمداحهم عملات زائفة

مدلّسة وهو انما يقدم الدر الذى يميزه الانتقاد يقول
لمدوحه :

انى ثرت عليك درا فانتقد
كتر المدلس فاحذر التدليس
حجبتها عن أهل انطاكية
وجلوتها لك فاجتليت عروسا

واذا كن قد سار بشعره من لا يسير وغنى به من
لا يغنى ففرد ، فان هذا المعنى قد أعجبه فردده بصور
مختلفة منها :

أنا الذى نظر الأعمى الى أدبى
وأسمعت كلماتى من به صمم
أنا مملء جفونى عن شوارده
ويسهر الخلق جراها ويختصم

ولا جدال فى أنه كان يرى أن جودة شعره مؤذنة
بسيورته فى الزمان ما عليه الا أن يقول وعلى الأيام أن
تجرى بقوله فى مشرق الأرض ومغربها يقول :

وعندى لك الشرد السائرات
لا يختصن من الارض دارا

قواف اذا سرن عن مقولى
وثبن الجبل وخضن البحارا

ولى فيك ما لم يقل قاتل
وما لم يسر قمر حيث سارا

ويقول أدينا متحدثا عن شعره :

فشرق حتى ليس للشرق مشرق
وغرب حتى ليس للغرب مغرب

وهو يرى كذلك أن أبياته كالمهارى العتاق تشدها
فتعرف أصالتها يقول لابن العميد وهو الكاتب الأديب
النقاد :

فبشتا بأربعين مهارا
كل مهر ميدانه انشاده

ومن لطائف ما يقال هنا ، ان هذا البيت من القصيدة
التي مدح بها ابن العميد ليس هو البيت الأربعين فيها ،

بل هو البيت الثامن والثلاثون فيضطر المتنبي الى اكمال
القصيدة لتبلغ أربعين بيتا ويوجد أمامه فرصة جديدة
للحديث عن شعره فيقول لابن العميد :

فارتبطها فان قلبا نماها

مربط تسبق العجاء جواده

يعنى بذلك أن قلبه ينتج شعرا رائعا يعلو على أشعار
القائلين سواء .

وهو حتى في مقام الغزل يتجنب الى محبوبته بالبلاغة
والشعر فيقول :

جفتى كأنى لست أنطق قومها

وأطعنهم والشهب فى صورة الدم

وثمة ناحية فى فخره بقوافيه تستحق ان نلم بها
المامة يسيرة ذلك انه يرى أن قوافيه حين يسبقها على
مدوحيه تكسبهم شرفا يفيظون به أعداءهم بل انها أحيانا
قد تجر على هؤلاء المدوحين بعض العداوات ، انظر الى
قوله :

رمى عداؤه بالقوافي وفضله
وهن الغوازي السلمات القوائل
والى قوله :

رب نجيع بسيف الدولة اسفكا
ورب قافية غاظت به ملكا
وقوله عن شعره :

فاذا مر بأذنى حاسد
كان ممن كان حيا فهلك !
وبعد ، فان أبا الطيب المتنبي بحر بعيد الغور ، لكننا
اقتصرنا على ما أبداه من الرأى فى اشعار نفسه فخارا بها
وتقديرنا لمتازلها . هذه الأشعار التى جعلته يقول :

لا بقومى شرفت بل شرفوا بى
وبنفسى فخرت لا بجودى
وبهم فخر كل من نطق الضا
د وعود الجانى وغوث الطريد

ان اكن معجيا فمعجب عجب
لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا ترب الندى ورب القوافى
وسمام العدا وغيظ الحسود
أنا فى أمة تداركها الله
غريب كصالح فى تمود

من شعراء الكويت الرواد

ننظر الآن فى طائفة من دواوين شعراء الكويت الرواد ، من الجيل الذى يسبق جيلنا ، أتيحت لأشعارهم أن تجد سبيلا الى النشر على أيدي نفر من كرام أدباء الكويت وذوى الفيرة على تاريخه الأدبى والفنى ، أمامى الآن ثلاثة دواوين هى ديوان فهد السـكـر الذى نشره الأستاذ عبد الله زكريا الأنصارى ، وديوان خالد الفرج الذى نشره الأستاذ خالد سعود الزيد وديوان صقر الشيب الذى جمعه ونشره الأستاذ أحمد البشر الرومى وليس من المنتظر منى أن يكون هذا الحديث عرضا نقديا للدواوين الثلاثة ، ولا تحليلا أدبيا أو فنيا لها ، فذلك مدى يضيق عنه وقت الحديث ، وليكن الحديث كأنه تحية أو كأنه تقدير لنشر هذه الدواوين فلعل المخبوء من كنوز الأدب الكويتى ، وما أكثره - يظهر للناس فينتفعون بنفاثه .

لقد سبق لى فى بعض أحاديثى الاذاعية أن تحدثت
 عن فهد العسكر ، وقد وجدت الصديق الكريم الأستاذ
 عبد الله زكريا الأنصارى يشبهه فى تشاؤمه بعيد الرحمن
 شكرى الشاعر المصرى الكبير والذى كان أحد أركان
 مدرسة الديوان لكنى أرى فى هذا الشأن رأيا يخالف رأى
 الصديق العزيز فأنا متفق معه على أن فهد العسكر شاعر
 متشائم ومتفق معه على أن عبد الرحمن شكرى من شعراء
 التشاؤم كذلك ولكن الخلاف هو فى طبيعة تشاؤم كل منهما
 فتشاؤم العسكر تشاؤم فنان وتشاؤم شكرى تشاؤم فيلسوف
 ونموذج التشاؤم الشهيران والكيران فى الأدب العربى هما
 ابن الرومى على بن العباس ، وأبو العلاء المعرى ، وتشاؤم
 ابن الرومى يغاير تشاؤم المعرى مغايرة واضحة ، والفرق
 بين التشاؤمين ان نظرة الفيلسوف المتشائم تشمل الناس
 كل الناس ، حيث كانوا ومتى كانوا وان نظرة الفنان
 المتشائم لا تكاد تتعدى نفسه ، فتشاؤمه ينبع من داخل
 نفسه بخلاف المتشائم الفيلسوف فان تشاؤمه يدخل الى
 نفسه من خارجها . لكنى مع هذا أريد أن أنصف العسكر
 وأخاء القديم فأقول انهما أقرب الى وجدان القارىء منهما

الى عقله وتفكيره ، ويبقى بعد ذلك أن أقول ان العسكر
أحسن صياغة وأجود سبكاً من زميله المصرى ، ولعل هذا
جاء نتيجة منطقية للتفرقة التى أوضحناها بين تشاؤم الفن
وتشاؤم الفلسفة •

وأما ديوان خالد الفرج فقد نشره الأستاذ خالد
سعود الزيد وأضاف اليه معظم ما أنجبه قريحته فى غير
ميدان الشعر ومنه رسالة قيمة فى تبسيط الحروف العربية
واصلاح الكتابة من ثلاث نواح هى ناحية الحروف بجعلها
بسيطة متناسبة مرنة مختصرة وناحية المنطق بإيجاد حركات
ثابتة لازمة ترسم فى صلب الكلمة حتى يعتاد النشء على
النطق بالكلمات صحيحة والناحية الثالثة ناحية الاملاء لتكون
هناك مطابقة بين ما ينطق به الناطق وما يكتبه الكاتب فتحذف
واو عمرو وما مائلها •

والفرج شاعر مفكر ، أو قل ان التفكير يغلب على
شعره ولكنه مع هذا يبقى شعرا ذا مائة وذا رونق فنى
واضح ، انما يلفت النظر فى أشعاره تبجيلها الواعى
الدقيق لأحداث السياسة العالمية والقومية فلم يمر به شيء

الا وسجله في شعره وتستهو به بعض المعاني القومية
فيعود الى تسجيلها المرة بعد المرة • ويعطيها في كل مرة
اطارا جديدا من طاقته الشعرية الوهوب • وعلى ذلك فان
أروع شعره على الإطلاق هو الشعر السياسي ومنه
فلسطينياته الروائع • ونرى نحن هنا ما رآه الأستاذ خالد
سعود من أن قصيدته الغرب والشرق هي قمة قصائده
القومية وفي بعضها يقول :

يا قوم في أحوالنا عبء

فليقم النائم من رقدته

فمن تفدى بأخى ضحوة

فقد تشى بى فى ليلته

وكلنا ينشد فى سره

ما قاله الشاعر فى حكمته

من حلقت لحية جاز له

فليسكب الماء على لحيته

ندور لكن دوران الرحى

والناس مثل الثور فى سرعته

والغرب لا يسمع صوتا لنا
 ان لم يك المدفع في نبرته
 لا يدفع الغرب سوى بأسه
 أو قوة تسمو الى قوته
 أولا فان لم نجتمع عاجلا
 ونحصر العنصر في وحدته
 ستأكل الهرة أولادها
 ويحصل القط على حصته
 فحسبنا الاسلام من جامع
 ونحن من يعرب في دوحته
 لا تسأل الآخر عن مذهب
 في دينه واسأله عن أمته
 يحمى كيان القوم اجبايعهم
 أولا فأرسلهم الى رحمته

أما شاعرنا الثالث صقر الشيبب الذي جمع ديوانه
 ونشره الصديق الأستاذ أحمد البشر الرومي ، فهو ديوان
 المطولات حقا فثمة قصيدة واحدة فيه على وزن واحد

وروى واحد بلغت مائة وتسعة وثلاثين بيتا • وهى قصيدة
« بين الجبد والهزل ، عنز تأكل الكتب ، وفى صقر الشيب
بعض. لمحات من ابن الرومى احداها هذا الطول فى قصائده
كما رأينا فى قصيدة العنز وكما نرى فى قصيدته « لهفى
على الفصحى » وقد نظمها أسى على حال اللغة العربية بعد
أن سمع أحد المدرسين يكثر من اللحن وهو يلقى درسا
فى اللغة العربية ، واللمحة الثانية ان كثيرا من شعره فيه
ما يمكن ان نسميه الموضوعات الشخصية فى الشعر التى
ترجم لصاحبها وتوضح نفسه وقد قرأنا لابن الرومى
قصيدته شاكيا الى أحد الوزراء ان غصب أحد الجيران
جزءا من داره ، ففصل الشكوى تفصيلا لا تفصيل بعده
وها نحن أولاء نقرأ شيهتها لصقر الشيب قصيدة من
روائمه جاوزت الستين بيتا عنوانها « قرعة الجابى » والجابى
محصل الأموال ، ويقصد بقرعته طرده على الباب والقصيدة
تكاد تخرج من البابة التى أخرج منها ابن الرومى قصيدته
يقول صقر فى مستهلها :

يا رئيس البلدية -
لا أصابتك بليه

انظر اليوم فذلك انك
فس في هذى القضية
طلبوا منى مات
سليمه شق عليه

خفيت حالى عليهم
وهى بالفقر جلية

مادروا انى لرامى ال
فقر ما زلت رمية

فأتوا يبنون عندى
ما يدى منه خليه

ما رأى الفلس مقاما
مستطابا فى يديه

فهو يأتينى ولكن
ريشا يمضى لعليه

لو ترى حالى لرفت
منك لى النفس السريه

ولهزتكَ لاسعادي وعو
نى الأريجيه

قرعة الجابى لباى
غادرت نفسى شجيه

وائقا أن جيبوى
ليس فيهن خيسه

خائفا أن اعتذارى
منه لا يتى أياه

فتململت كما تفعل
فى الرمضاء حيه

وقد استطاع طول القصائد لديه أن يمكنه من
استقصاء المعانى واكمال ما يريد اكماله من الأفكار
ولا نحب ان تنهى الحديث عنه قبل أن نروى بعض قصيدته
فى العنز فهى من أروع قصائده يقول ناقلنا عن العنز :

فوالله لو كنا أناسا وكنتم
بهائم كنا فيكم تنقى الربا

ولم نجزكم مهما اتيتكم اساءة
 الينا عليها مثل قولك أو ضربا
 وقمنا لكم بالعذر عن كل هفوة
 على مثلها تجزوتنا الضرب والسبا
 وكيف نجازيكم على السوء مثله
 ولم ترزقوا فهما يميز ولا اربا
 ولم نرعكم الا مراعى خصبة
 ولم نرض الا بالنمير لكم شربا
 ونعتقد أن صقر الشيب كان ممن يكثرون قراءة
 شعر ابن الرومي فان لابن الرومي لمحات في الصياغة
 وترتيب الجمل نجد كثيرا منها عند صقر الشيب .

شبيبة وكهولة

فى هذا الحديث نقرن بين الشبيبة والكهولة ، ونربط بين الشباب الناعم النضير والكهولة المغضنة اليابسة ، تعالوا نتحدث فى الشيوخ اذا طاف بهم طائف الحب ، فاذا هم يندوبون هوى ، ويدركهم سهد الحب ، وشغل المحب الواله .

فى رواية مصرع كليوباترا لأمير الشعراء أحمد شوقى أبيات ساقها الى زينون الشيخ المحب الواله يقول له فيها :

أفق زينون ، واصح من الفوانى
أبعد الشيب تخدعك النساء
وما كعمى الشيوخ اذا أحبوا
وليس وراء فتنهم بلاء
ومنذ عدة سنوات زارنى فى مكتبى الشاعر محمد

طاهر الجبلاوى ، وكان قد أحيل الى معاش التقاعد لبلوغه
السن القانونية وأدركه وهن الشيخوخة وفسدت أسنانه
فخلعها جميعا واستبدل بها أسنانا صناعية برافة ، وجرى
بنا الحديث فى الشعر فاستشده وأخذ طاهر ينشدنى
شعرا من الغزل العفيف ، وأعنى بالغزل العفيف ما يمتلىء
بالبكاء والنحيب والشكوى من دلال المحب وجفائه
وصدوده وهجرانه وقلت للشخ الشاعر المتصابى يومئذ
وكأنى أهديء نفسه ألم تسمع قول شيخك القديم :

فَنَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَاَنْتِ
خَيْرُ بَادِءِ النِّسَاءِ طِيبِ

إذا شاب رأس المرء أو قل ماله
فليس له من ودهن نصيب

ثم ألم تسمع قول شيخك ابن الرومى :
أقول وقد شابت شوانى وقومت
قناتى وأضحت كدتى تتمدد

ولذت أحاديثى الرجال وأعرضت
سليمى ورياء عن حديثى ومهذد

وبدل اعجاب الفـوانى تعجبا
فهن روان يعتبرن وصـدد

لما تؤذن الدنيا به من صروفها
يكون بكاء الطفل ساعة يولد

والا فما يبكيه منها ، وانها
لأرحب مما كان فيه وأرغد

إذا أبصر الدنيا استهل كأنه
بما سوف يلقى من أذاها يهدد

وللنفس حالات تظل كأنما
تشاهد فيها كل غيب مـشهد

قال : بلى قد سمعت ووعيت وبعد هذا الكلام الطويل
فى الغزل والتغزل والصبأ والكهولة أخرج أسنانه الصناعة
من فمه لسبب لا أذكره فقلت له ضاحكاً : مالك قد فض الله
فاك فضحك وضحكت ثم انصرف .

وحين أردت أن أرسم له صورة كاريكاتورية بالشعر
فى ديوانى « رسوم وشخصيات » لم تبارحنى صورته
مفضوض الفم يتغزل فقلت :

قد سمعنا لطاهر فسمعنا
 نغما مشجى الترنم عذبا
 يرصف المدح رائقا ويصوغ ال
 وصف سهلا ويقزل العشق صبا
 واصل بالقديم أطرف ما قال
 وان كان وصله مستحبا
 صور من حلى البلاغة غر
 وعلى غير فضله تتأبى
 الوفى النقى فى الصحب لا نعرف
 منه الا ودادا وقربى
 ويراه العقاد خدن صفاء
 ورفيقا ما كان - مذ كان - خبا
 واذا امتشد القصيد شدا
 - وهو شيخ - عشقا يذوب وجبا
 عجبى للصديق قد فض فوه
 وهو ما زال عاشقا يتصبى !
 وفى هذا المجال ، قرأ : تاريخ شاعر الألمان جيتي

فوجدناه وهو فى الرابعة والسبعين يخطب فتاة فى التاسعة عشرة فلا تتصور هى أن يكون هذا الشيخ الغانى لها زوجا ويشعل الحب فى جوانحه اشتعالا فيلح على الفتاة ان تقبل، وتمعن هى فى الرفض فيتشفع فيها بالأمر وكأنما يحقق بذلك قول أبى الطيب المتنبى :

عل الأمير يرى ذلى فيشفع لى

عند التى تركتنى فى الهوى مثلا

وتمعن الفتاة فى اصرارها على رفض هذه الخطبة العجيبة وتتضم أمها اليها وتترح الفتاة أو يطلب هو أن تمنحه قبلتين اثنتين على سبيل التفرية وحسم الغرام ، فيكر راجعا من دارها مطوى النفس على الألم والحياة .

ويعنف العقاد بجيتى لوما وتأنيسا حين يتحدث عن هذا الحب بين شيخ يجرى نحو الثمانين وفتاة شابة لم تبلغ العشرين ويقول انه قد نسي انها الربيع وانه الحريف فى جفافه ويبسه وشحوبه وحزنه .

لكن العقاد بعد هذا يقع فى قريب مما وقع فيه جيتى ، فيقع فى غرام فتاة صبية شابة تملك عليه أقطار

نفسه ويتحدث عن هذا الحب فيقول :

نفض النّاس فؤاده وصبا
وصحا فمال فهم فاضطربا
ونفى السّامة بعد ما بلغت
منه المشاش وعاود اللّعبا
وجرى الذى ما كان يحسبه
يوما يكون وطالما حسبا
فى توبة الحسنيين يشغله
وجه ويملا صدره رغبنا
ويظل يسأله وان وهبا
ويبت يسمعه وان كذبا
ويعد منه الزور مآثره
أو لا يريد بزوره سيبا
رجع الهوى عجبا له عجبا
لا طاغيا وافى ولا لجبا
لم أوله بابا ولا كفا
غدى ، فكيف أطل واقتربا

ناديته حيناً فراوغنى
فاليوم نادانى وما طلبا
بينا أقول صدده حذرا
ظلع النهار اذا به انسربا

هذا الصغير على غرارته
يدرى النفق ويحسن الأدبا
وتراه فى العشرين مستبقا
وتراه فى الخمسين مصطحبا
ويغىظ من كيد وعريدة
فاذا أغىظ شكا أو انتحبا
متمرسا بالدهر مختبرا
خيم القلوب محاذرا دربا
سأضمه رفقا وأوسع
برا وأملك قلبه حذبا
ويقيم لا أخشى كنانته
السهم أخطأ والحسام نبا

أكذاك أم هو خادعى أبدا
حتى اذا أمن الحمى انقلب

سيان ما أنا حاذر بغد .
أغلبته بالكيد أم غلبا

حذرى أشد على من خدع
تشقى وتسعد بالئى نوبا

فى كل يقظة خائف مرم
ومع الخديعة لذة وصبا

ولعل قراء العقاد وهم يقرءون ديوانيه « أعاصير
مغرب » الذى نظمه وهو فى الثانية والخمسين و « بعد
الأعاصير » الذى نظمه بعد الستين يلاحظون أنه يتغزل
بقناة يسميها تارة « بنية » ويصغر بعض الكلمات فى الحديث
إليها إشارة إلى صغرها كأن يقول « ضمى ثغرك يا بنية »
وقد التفت العقاد وهو فى غمرة هذا الحب إلى أنه كان قد
لام جيتى على غزائمه بعد الستين وبعد الثمانين فيكتب فى
ديوان بعد الأعاصير مقطوعة بعنوان انتقام جيتى يقول فيها :

يا صديقي القديم اعتذارا
لك من سوء ظنتي وملامي
كنت أنعى عليك حبك في
الستين بنت العشرين فاغفر ملامي
وأراني على ملائك من قبل
لحب دون الثمانين دام
فانتظرنى فقد يجيء اعتذارى
لك طوعا فى مقلب الأيام
ان عشقنا كما عشقت وأوفينا
عليها انتقم خير انتقام
ويقول مخاطبا كيوبيد :
كوبيد قد كثرت سهامك كثرة
تنسيك فى الهيجاء كل حساب
أسرفت فى فن الرماية خاسرا
أو رابحا من شقوة وعذاب
لم يعتصم منك المشيب ولا وقت
من طيش قوسك عزلة المحراب

أيصيني سهم وعندك في الحمى
- متعرض الأهداف - جيش شباب

دعني فما أنا والفراغ وأنا
فتن الهوى لعب من الألعاب

اني لأبذل من سهامك حصتي
بذل السخاء لكل قلب صاب

ويروى الشيخ داود الأنطاكي المعروف بالأكمر
صاحب التذكرة العلية في كتابه « تزوين الأسواق بتفصيل
أشواق العشاق » أنه قرأ في الشاهنامة الفارسية
ما ترجمته ان ابرويز أحد ملوك الفرس تزوج امرأة
صغيرة بديعة الحسن وقد بلغ هو ثمانين سنة فوجد بها
وازداد عشقه لها وهي تظهر حبه وتخفي بغضه وعلقت
ولده واشتد ميلها اليه وان الملك دخل فرآهما على الحالة
المنكرة فكادت نفسه ان تزهد وعلم انه ان اظهر انه
رآهما أمرت المرأة ولده بقتله فرجع وأخذ في تدبير
الحيلة فأخذ كتابا وسم ورقه وجلده بالذهب ورصعه
بالجوهر وأودعه صندوقا وجاء به الى المرأة فقال لها قد

علمت ما حوت يدي من الذخائر والنفائس ، غير انه لم يكن
يسدل نفسي الا هذا الصندوق فاحتفظى به وعلم انها
ستطلع عليه ولده ، فلما خلت به أخبرته القصة فقال : على
بالصندوق فأحضرتة ، ففضه فلم يجد الا الكتاب مطبوقا
فحاول فتحه فوجد ورقه متعلقا بمضه ببعض فجعل يبل
اصبعه من ريقه ويتصفح الأوراق ، فلعب اللعب فيه وعلم
بالحيلة فأخذ السيف وخرج فضرب أباه فسقطا ميتين •

مع الجاحظ

مع أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ نقف أو
نجلس ، نتحدث عنه حيناً ويتحدث هو إلينا حيناً آخر
ولكم أن تستزيدوا من المعرفة به حتى ترتفع بيننا وبينه
الكلفة فيما نتحدث به عنه أو فيما يتحدث به إلينا .
والجاحظ لقب لقب به لجحوظ عينيه أى بروزهما
ولهذا يسمى أيضاً بالحدقي لكبر أحداقه وهو لقب كان
يتقبله برضا ولا ينكره ، فمما روى عنه أنه ذهب إلى
صديق فطرق بابه فقالت له جارية باليت : أقول لسيدى
من أنت ؟ فقال لها : الجاحظ فأعادت اسمه كأنما تريد أن
تثبت فقالت : الجاحد ؟ فقال قولى الحدقي فقالت : أقول
الحلقى فبادرها الجاحظ بقوله : لا تقولى شيئا وتركها
وانصرف حين أغيا عليها نطق اسميه جميعا ، وولد الجاحظ
بالبصرة عام النصف من القرن الثانى الهجرى ، أو بعيد
ذلك بقليل وكان معتزليا بل انه كان رأس فرقة من المعتزلة

سموا بالجاحظية نسبة اليه وذكر مؤرخوه انه تعلم
الفارسية وحذقها وقرأ بها ونظر فى علوم الأوائل وكان
قارئاً نهما ، لم يفته كتاب ظهر فى عصره بل انه كان
يكترى دكاكين . الوراقين - أى باعة الكتب - ويبيت فيها
ليلاً للنظر والقراءة والاطلاع ، وتحدث ثابت بن قرة الصائى
عنه فقال انه شيخ المتكلمين وخطيب المسلمين ومدرسة المتقدمين
والتأخرين ان تكلم حاكى سحبان فى البلاغة وان ناظر
ضارع النظام فى الجدل ، شيخ الأدب ولسان العرب كته
رياض زاهره ورسائله أفنان مشمرة ، وقد عمل فى ديوان
الرسائل أيام المأمون بضعة أيام ثم استعفى فأعفى .

ونجىء الى شكله وقد ذكرنا جحوظ عينيه وبروز
حدقتيهما فنجد دميم الحلقة جدا يكاد ينفر منه الناظر
اليه ، وقد اتخذ هو من ذلك مادة للسخرية بنفسه قال
الجاحظ ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده أى تعليمهم -
فلما رآنى استبشع منظرى فأمر لى بعشرة آلاف درهم
وصرفنى . وذكر ان امرأة لقيته يوماً ببعض الطريق
فقال له : ان لى اليك حاجة وأريد أن تمشى معى فمشى
معه الى أن أتمت به الى صائغ يهودى وقالت له : مثل هذا

وانصرف ، فبأل الجاحظ الصانع عن قولها فقد الصانع :
ان هذه المرأة أتت الى بفص وأمرتني ان انقش لها عليه
صورة شيطان فقلت لها يا ستي ما رأيت الشيطان فأنت بك
وقالت ما سمعت •

والسخرية عند الجاحظ ملكة متصلة بفطرته لا تفارقه
حتى في أخرج المواقف وأقباها كان - كما يقول الرواة
- متصلا بالوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، ومنقطعا
اليه ومنحرفا عن احمد بن أبي دؤاد ، لما كان بينه وبين
الزيات من التباغض ، فلما أوقع ابن أبي دؤاد بالزيات
وقبض عليه هرب الجاحظ ف قيل له : لم هربت ؟ فقال
خفت أن أكون ثاني اثنين اذ هما في التور ، يشير الى
التور الذي صنعه ابن الزيات وجعل فيه مسامير ليعذب به
خصومه فعذب هو فيه حتى مات •

وقد تولى الجاحظ الوظائف العامة كما قلنا بضعة
أيام ، ولعله كما يقول الدكتور مصطفى الشكعة - كان
يفضل أن يعيش حرا من قلمه وان يسن هذه السنة الطيبة
لفتة قليلة من الكتاب عاشت بعده بما يقارب قرنا من
الزمان ، ونقول انها السنة التي انضجته وخرجته كاتباً

رفيع المكانة بعيد الصيت ، وهى نفسها السنة التى خرجت
المازنى والعقاد بعد ذلك بعدة قرون .

وكان الجاحظ حتى فى أخرج المواقف لا ينسى
ملكة السخرية عنده كما قلنا وكذلك كان لا ينسى بلاغته
وفنه الانشائي البديع وانظر اليه وقد أتوا به مكبلا بالحديد
الى مجلس ابن أبى دؤاد القاضى الذى نكب ابن عبد الملك
الزيات ، فقال له ابن أبى دؤاد : والله ما علمتك الا
متناسيا للنعمة كفورا للصنعة معددا للمساوى ، وما فتى
باستصلاحى لك ولكن الأيام لا تصلح منك لفساد طويتك
ورداة داخلتك وسوء اختيارك وتغالب طبيعتك ، فرد عليه
الجاحظ ، وكان ابن أبى دؤاد أديبا ذواقة تأسره البلاغة
ويقتنه جمال البيان - قال الجاحظ :

خففص عليك أيديك الله ، فوالله لأن يكون لك الأمر
على خير من أن يكون لى عليك ، ولأن أسوء وتحسن
أحسن فى الأحداث عتك من أن أحسن قضى ، وان تغفو
عنى فى قدرتك ، أجمل من الانتقام منى ، وقد أعجبه
الرد فقال : قبحك الله ما علمتك الا كثير تزويق الكلام
وقد جعلت ثيابك أمام قلبك ثم اصطفيت فيك النفاق

والكفر وما تأويل هذه الآية (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ
القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد) قال الجاحظ :
تلاوتها تأويلها أعجز الله القاضي فأمر القاضي بحداد
ليفك عنه •

« والبيان والتبيين » أشهر كتب الجاحظ ، وان كان
له من الكتب الكثير المشهور وهو دائرة معارف أدبية عربية
واسعة وقد قلنا ان الجاحظ قد حنق الفارسية ونقول هنا
انه روى كثيرا من الشعر الذى تدخله كلمات فارسية فى
الجزء الأول من البيان حين قال : وقد يتملح الأعرابى بأن
يدخل فى شعره شيئا من كلام الفارسية كقول العماني
للرشيد فى قصيدته التى مدحه فيها :

من يلفه من بطل مسرند
فى زغفة محكمة بالسرد
يجول بين رأسه والكرد

يعنى العنق ، ويقول فيه أيضا :
لما هوى بين غياض الأنسد

وصار في كف الهزير الورد
آلى يذوق الدهر « أب سرده »

ولكنه لم يشرح لنا كلمة أب سرده هذه كما شرح
في الفقرة الأولى •

بل انه روى لابن مفرغ الحميري الشاعر العربي
المشهور شعرا لم نفهم من سطور ثلاثة منه الا ثلاث
كلمات عربية فحسب •

ويقول الدكتور محمد نبيه حجاب في كتاب ممتع
له عن بلاغة الكتاب في العصر العباسي « ان مدرسة التحليل
والتفريع والاستقصاء وهي المدرسة الجاحظية لم تستطع
المدارس التالية لها أن تطغى عليها أو تطوى صفحاتها بل
كانت تسايرها زمنا وتكاد تغمرها ثم تنحسر عنها حتى في
عصرنا الحاضر الذي مل السجع والغاز البديع وساد فيه
الأسلوب المرسل لم تتوقف لها موجة ، تلمحها في التوازن
والازدواج عند الرافعي والزيات ، والترديد والتكرار عند
طه حسين والتحليل والتعليق عند العقاد والفكاهة
والسخرية عند الشيخ عبد العزيز البشري »

وكان بدیع الزمان الهمزانی معجبا بشر الجاحظ
- دون شجرة - أشد الإعجاب ألا ترى كيف سمى باسمه
أحدى مقاماته ، وهى المقامة الخامسة عشرة الجاحظية التى
يقول فيها :

« وأخذنا فى وصف الجاحظ ونسبه وحسن سنته
فى الفصاحة وسنته فيما عرفناه » .

ويقول فيها :

« ان الجاحظ فى أحد شقى البلاغة يقطع وفى
الآخر يقف والبلغ من لم يقصر نظمه عن ثره ولم يثر
كلامه بشعره فهل ترون للجاحظ شعرا رائعا ، قلنا لا ،
قال فهلموا الى كلامه فهو بعيد الاشارات قليل الاستعارات
قريب العبارات » .

وتذكرنا قلة الاستعارات هذه بحديث جرى فى
ندوة بيت الزعيم المصرى سعد زغلول جمع بين عباس
العقاد ومصطفى لطفى المنفلوطى ، وذكر أدب مصطفى
صادق الراعى فقال سعد : اننى أتناول أسلوب هؤلاء
الكتاب جملة جملة فاذا هى جمل مفهومة لا بأس بها

في الصياغة ولكنى أتبع هذه الجمل الى نهايتها فلا أخرج
منها على نتيجة ولا أعرف مكان احداها بما تقدمها أو جاء
بعدها فلعلم هؤلاء الكتاب يسمعون بالمفروق ولا يسمعون
بالجملة .

وتذاكر الحاضرون فذكروا أن هذا عيب كثره
الاستعارات وهنا قال العقاد ان الاستعارة ما برحت دليل
الفاقة في المال وفي اللغة !

وهكذا تركنا الحديث عن الجاحظ واستطردنا الى
سعد زغلول ولطفى المنفلوطى والعقاد والرافعى ولعل
الجاحظ يغفر لنا فلم نأخذ في ذاك الا بمذهبه في الاستطراد .
ونعود الى الجاحظ فنذكر له رسالة التربيع والتدوير
التي كانت مع كتابه البيان والتبيين سببا لشهرة الجاحظ
في الاندلس وتعلق الناس بأدبه وهى رسالة طويلة سخر
فيها الجاحظ سخرية لاذعة من رجل اسمه احمد بن
عبد الوهاب الذى كان يزاحم الجاحظ في معروف ابن عبد الملك
الزيات ، وعلى قدر ما كان الجاحظ دميما قبيحا بشعا - كما
قال عن نفسه - كان خصمه أنيقا متجملا وهذه الرسالة
نمط فريد في السخرية والتهكم مع فيض زاخر من

الترادف الذى يدل على سخاء اللغة وتملك الكاتب ناصيتها
كان يقول لابن عبد الوهاب :

« وكيف أصبحت وما على ظهرها خود الا وهى
تتشر باسمك ولاقيه الا وهى تتغنى بمدحك ولا فتاة الا
وهى تشكو تباريح حبك ولا محجوبة الا وهى تثقب
الخروق لمرك ولا عجز الا وهى تدعو لك ولا غيور الا
وقد شقى بك » •

من عبث الصبا

ان أمس لا أمس يوما من أيام الصبا ، ألف القدر فيه
تمثيلية قصيرة وكنت - مع الأسف - واحدا من أبطال
هذه التمثيلية وأقول مع الأسف لأسباب سيعلمها القراء
الكرام بعد حين .

الوقت بعد صلاة العصر بقليل، وبیت الشاعر المعروف
السيد حسن القاياتي عضو مجلس النواب في ذلك الحين
والكائن بعطفة السكرية بالقرب من بوابة المتولى مفتوح
للزائرين من الأدباء والشعراء وشداة الأدب والشعر وبين
الحاضرين الشاعران الشابان أمم و طه أ ومؤلف هذا
الكتاب والحديث في الأدب والشعر والفكاهة طرفة من هنا
وطرفة من هناك ثم ينهض الثالث الشاب للانصراف
ويودعهم الحاضرون ويمضي الثالث في سبيله عابرا بوابة
المتولى ، المعروفة وتذكرها كتب التاريخ باسم باب زويلة
ووراءها شارع اسمه تحت الربع و أمم يأتي أن يغادر

ميدان تحت الربيع انتظارا لبائع عرقسوس يمر من هناك
 فى مثل هذا الوقت من كل يوم ويضرب بصنجاته ضربا
 موقعا يلد السامعين ، وهو بين توقعه ينادى على العرقسوس
 نداء ملحنا بصوت رخيم ويتغير النداء على البضاعة بين كنان
 دقة وأخرى من دقات الصنجات ، والرجل يلبس ملابس
 مزخرفة تزدان بقطع من النحاس الأصفر اللامع ويربط
 الى وسطه جرة من الفخار تسيد فوهتها بعض الأزهار
 الجميلة ، ويشد خول وسطه حزام فيه وعاء من النحاس
 يضع فيه الأكواب ويده كما قلت الصنجات وباليه الأخرى
 يحمل ابريقا من النحاس الأصفر اللامع ، يضل منه
 الكوب بعد كل استعمال وكان أوم معجبا بهذا الرجل
 العجيب يعنى اليه فى تأثر واعجاب وانتظرنا الرجل حتى
 مر بنا ، ووقفنا ننأمله ونعجب بفنائه وضربه ولكنه ظن أننا
 نهزأ به ، أو ظن أننا غير معجبين به أو ببضاعته فألقى علينا
 بعض الكلمات النابية القاسية وصديقنا الشاعر أوم كان
 ولا يزال عصبى المزاج ضيق الحوصلة - كما يقولون
 عندنا فى مصر - فرد على الرجل بأننى وأقصى مما قال
 وكانت معركة فضاها شاعرنا بأن وثب على الجرة فكسرها

وفاض شراب العرقسوس على الأرض والناس ينظرون
ولعل بعضهم كان يقول في نفسه :

كسر الجرة عمدا

وسقى الأرض شرابا

قلت والخمرة ديني

ليتني كنت تـرابا

وخاف الرجل المسكين ألا يستطيع أن يحصل من
أوم وحده - وهو الذي تشاجر وهو الذي كسر - على
ثمن ما انكسر وما سال من الشراب فأمسك بتلابينا نحن
الثلاثة وصاح بواحد من رجال الشرطة فاقادنا الى قسم
الشرطة القريب من المكان ووقفنا نحن الثلاثة أمام الضابط
المختص ، ولم يصدق الضابط اننا نحن الثلاثة قد كسرنا
الجرة مجتمعين ، ونبت عن الجميع فأبنت له الموضوع ،
وشرحت له القصة من أولها حتى ساعة متولنا أمامه متهمين
بكسر الجرة واسالة الشراب على الأرض وكان الضابط
لطيفا جدا ويظهر أنه كان يقرأ الصحف وله بعض الاهتمام
بصحائف الآداب والفنون فيها فسأل الرجل عما يطلب

ثمنا للنجرة وللشراب فقال انه لن يتألى فى طلبه ، وسيطلب فقط خمسة وسبعين قرشا رحمة بهؤلاء المساكين وأشار إلينا وكنا فى ذلك الحين طلبة بكلية دار العلوم. والوقت آخر الشهر والجيوب خاوية وتصنعنا التفتيش فى جيوبنا ثم أعلننا أسفنا اذ لم نجد فيها هذا المبلغ الضخم !

وقال الضابط انه سينوب عنا فى الدفع شريطة أن نحضر له المبلغ فى أقرب فرصة وسيطلق سراح اثنين منا ويستبقى ذلك الذى كسر العجرة وأسال الشراب ، وعلى اللذين أطلق سراحهما أن يحضرا له المبلغ فى سرعة حتى يفكا أسر صديقيهما المحتجز رهينة خمسة وسبعين قرشا .

وخرجنا من قسم الشرطة ولم نجد أماننا الا أن نعود الى منزل الشيخ القايتى لعنا نجد لديه هذه الخمسة والسبعين قرشا فذهبت اليه ومعى طء.أه ودخلنا فاستغرب الحاضرون عودتنا السريعة ، وليس معنا زميلنا وتصنع طء.أه الحزن فسأله القايتى ما بك ؟ قال : لقد وقعنا فى مشكلة عويصة ، وقص عليه القصة وأغرق الحاضرون فى الضحك حين عرفوا أن أخانا محتجز فى قسم الشرطة رهنا خمسة

وسبعين قرشاً وتفضل الشيخ حسن القاياتي فمد يده بالمبلغ الى فكاتب يد ط أسرع الى المبلغ من يدي وخرجنا قاصدين قسم الشرطة ن فك أنسر صديقنا المحبوس ، وما كدنا نعبّر بوابة التولى حتى رأى ط سيارة عامة آتية بسرعة فتعلق بها فى خفة وسرعة وأخرج لسانه لى ، وصاح بأعلى صوته : تصرف ل اخراج زميلك أما المبلغ فانى فى أمس الحاجة اليه . . . ولم أجد مفرا من الاتجاه الى بيتى حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ، وأحاول فى الصباح حل هذه المشكلة .

ومرت الليلة على أوم فى سجن قسم الشرطة ، سميراً لمن اتهم بسرقة حلة أو نشل حافظة واستضافه أحدهم على عشاء كان معه ، وفى الصباح لم يجد أوم مفرا من التصرف فاتصل بصديقنا المرحوم الدكتور ابراهيم ناجى واستغاث به ، فحضر ناجى الى قسم الشرطة على الفور ، وفك أسره .

هذه هى التمثيلية كما وقعت ، لكن بعض الأدباء أحبوا أن يمازحونى مزاحاً ثقيلاً فنشروا فى إحدى الصحف قصة كسر جرة العرقسوس - لا كما وقعت فى الطبيعة -

وانما بتغير طفيف ولكنه خطير اذ وضغوني بدلا من أوم
فى القصة ، فأنا الذى كسرت ، وأنا الذى حطت السجن
ضيفا وأن الدكتور ابراهيم ناجى قد فك وثاقى أنا لا وثاقه
ونشرت القصة كما أرادوها لا كالذى كان من أمرها ولم
يكتفوا بذلك ، فأضافوا حلقة الى القصة تمثل قصة جديدة
اذ أرسلوا عددا أو عديدين من نسخ المجلة التى نشرتها
الى خطيبتى حتى تعرف زوجها المنتظر على حقيقته وانتظروا
طبعاً ما يحدث من النتائج بعد هذا الذى فعلوه لكننى
سارعت فكتبت الى المجلة تصحيحاً لما روته من القصة ،
وسألت الدكتور ناجى رحمه الله أن يؤدى الشهادة لله ،
فكتب الى المجلة يعلن انه ذهب بنفسه الى قسم الشرطة وانه
أخرج أوم من الحبس لا أحدا سواه • وسكت رواية
القصة عن التعقيب والكلام •

وهذه قصة من قصص الصبا ، وقعت فى النصف

الأول من ثلاثينات هذا القرن •

شعراء يتهمون ويحاكمون

مع بعض الشعراء حين أوقفهم شعرهم فى أقفاص الاتهام والمحاكمة نقف ومحاكمة الشاعر على ما يقوله من شعر شيء - ولا شك - طريف لأنه يبرز أثر الشعر فى توجيه الآراء أما الشعراء الأقدمون فقد حفلت كتب التواريخ والطرائف بأسماء كثير منهم ، ومنهم ابن مفرغ الذى تحدثنا عنه فى بعض هذه الحلقات ، ومنهم النمرى الذى تغزل بزينب أخت الحجاج ، بقوله :

ولما رأيت ركب النمرى أعرضت

وكن من ان يلقيه حذرات

وأمسك به الحجاج ، وسأله : مم كان يتألف ركبك الذى رأته فأعرضت عنه حذرا فأسعفته سرعة بديهته أن يقول : لقد كان يتألف منى ومن حمار هزيل فأضحك الحجاج ورققت هذه الفكاهة الخفيفة هذا القلب القاسى الغليظ فأطلقه وعفا عنه •

ومنهم المنذر بن المغيرة الذي قبض عليه رجال المأمون
في جوف الليل وهو على قبور بعض البرامكة ينشد :

ولما رأيت السيف جندل جعفرا
ونادى مناد للخليفة في يحيى !

بكيت على الدنيا وزاد تأسفى
عليهم وقلت : الآن لا تنفع الدنيا !

وأخذوه الى المأمون فاحتج لديه بأن للبرامكة في
عنقه ديونا يجب أن يفي لهم بها • فعفا عنه ومنهم ذلك
الشاعر اليمني الذي كان يعيش في القاهرة تحت ظل
الفاطميين وهو عمارة بن علي الحكمي الذي برثا دولة
الفاطميين رثاء بليغا مؤثرا منه قوله :

رميت يادهر كف المجند بالشلل
وجيده بعد حسن الحل بالعطل
سعت في منهج الرأي العثور فان
قدرت من عثرات الدهر فاستقل
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة
على فجيعتنا في أكرم الدول

وعز عليه زوال الفاطميين واتهمه الأيوبيون بالتدبير
ضدهم ، وهو لا يملك غير هذه الأداة الخالدة بين يديه :
الشعر ونسبوا إليه أنه قال :

قد كان أول هذا الدين من رجل
سعى الى أن يدعو سيد الأمم

ثم أولوه عليه بما لم يرد ، وأضيف الى هذا كله
اتهامه بالتآمر مع ثمانية من الفقهاء والأعيان فحاكمه صلاح
الدين بين من حاكم من هؤلاء المتآمرين ، فأقر بما قال
وكانه لا يرى فيه شيئا غريبا ، وشنق بعد محاكمة قصيرة
فى اليوم الثانى من شهر رمضان سنة سبع وستين وخسمائة
من الهجرة .

واذا تركنا القديم الى الحديث وجدنا كثيرا من
الشعراء قد وقفوا فى أقفاص الاتهام وساحات المحاكمة
وأقرب المحاكمات الى الأذهان محاكمة الشاعر عبد الحليم
المصرى ، الذى كان قد هجا الخديو عباس الثانى وهجا
معه شاعره أحمد شوقى وبدأ المصرى حياته ضابطا فى
جيش مصر بالسودان وكان كثير التأمل بحافظ ، فى

شعره والقائه جميعا وأدركه ما أدرك «حافظ» من الطرد من
الجنين ثم لما لبث أن التحق بأحدى الوظائف في ديوان
الأوقاف ، ولما رأى أن أمر الشهرة والمال والمجد مفقود
لأحمد شوقي تودد إليه ومدحه بمثل قوله :

ذلك آية البلاغة فاعتدت

تمشى بطرسك مشية المتدلل

فاذا فخرت بها فإن محمدا

قد كان يفخر بالكتاب المنزل

قد جاء بالمشور آخر مرسل

وأنت بالمنظوم أول مرسل

وهو شعر فارغ لأنه يعتمد على المبالغات السخيفة
والمقابلات المصنوعة . ووجدت الأبيات صدى عند شوقي
الذى كان يحب المدح جدا ، فأغرى ذلك عبد الحليم
المصرى ، فطلع الى ما هو أكبر من ذلك عند شوقي
وقال له :

قربتى حتى اذا استوزرتى

أكبرت منزلتى بصدر المحفل

لكن الدسائس ما زالت تجتئ استطاعت أن تفضب
عليه شوقي ، فجاءه وازور عنه بجانباً فهجاء بقصيدة
شديدة بدأها بالغزل على عادة جيله فقال :

بالأعين اقلن لا بالمشرفيات
السود لا البيض في شن الاغارات
نادى الهوى عن يميني فالتفت قلم
أجد سوى فأتك حلو العبارات
ثم دخل في الموضوع وقال :
ما للخصيب يغالى بابن هاشم
ما أعرف المين الا في المغالاة
يد بعارفة الاحسان يصرفها
اليه كانت سيلا للفوايات
أشاعر النيل دون الخلق يشربه
بيننا يشق الصدى تلك المرارات
رأى الوشايات من نوع الخيال فلم
يزج الخيال الى غير الوشايات
ليدع الملك أن يرضى الخصيب فما
يبقى عليه سواء في اللذاذات

ما شرعه صبح أو آياته وضحت
 الشريعة شرعى والآيات آياتى
 ان العفيف الذى يقضى صدى وطوى
 وكفه تشتكى حميل الأمانيات
 وأخلق الناس بالدنيا أخو أدب
 ان يعدم المال يسرف فى المزومات
 الى الخصب تركت النيل عن رغب
 يسخر الناس فى حمل الجبايات
 نعم الأمين على مضر وساحتها
 لو يؤمن الذئب فى المرعى على الشاة
 قل للخصيب اذا ما جئت سده
 عليك بالدين فالدنيا ليقفات
 ومنها :

رميت من شعراء الملك طائفة
 فى لفحة العيش فارفق بالرميات
 فى الله ابتكار أشعارى التى وثدت
 فى شرع مدحك بعد الجاهليات

فاجلسن ، على عرش قرعون أخيك وقل :
أنا الاله ولى حق العبادات

النيل من فضتى والأرض من ذهبى
والشمس نورى والآفاق داراتى
واهنأ بمصر ومن فيها فقد رغبت
عنك النفوس التى ظلت أبيات

ولم يكتف الشاعر الغاضب بنظم هذه القصيدة بل انه
أرسل بها الى صحيفة الأهرام وزعم فى مقدمة
كتبها لها أنه رأى مسلم بن الوليد فى المنام وأخبره أن
الرشيد أجازته عليها ورجاه أن ينشرها فى مصر ، وفعل
نشرت الأهرام القصيدة فى عددها الصادر فى الثانى عشر
من يونيو (حزيران) سنة ألف وتسعمائة واثنى عشرة
فأحدثت دويما هائلا فى الأوساط الأدبية والسياسية وكتبت
صحيفة المؤيد بعد ذلك بأربعة أيام تقول ان الحبيب ماهو
الا خديو مصر عباس الثانى وان ابن هانىء ليس الا أحد
شوقى فخشيت صحيفة الأهرام عاقبة الأمر ونشرت فى
عدد السابع عشر من يونيو من تلك السنة كلمة تستعيز

بالله فيها مما يقول المتقولون ، وأعلنت براءتها من الشعر
وشاعره لو أن مراده كان هذا

وقامت القيامة وانتشعب بعقاب الشاعر شعبتين ، فأحيل
الى النيابة فمحكمة الجنايات وطرد من وظيفته فى وزارة
الأوقاف ، ويقف الشاعر أمام المحكمة ويصدر الحكم عليه
فى السابع عشر من أغسطس (آب) من العام نفسه
بحسبه ثلاثة أشهر حيث قد ثبت للمحكمة أن الخصيب
وابن هانيء اسمان مستعاران للخديو ولأحمد شوقي
واستأنف الشاعر الحكم وقد أثار الغضب فى نفوس الناس
بما اتسم به من قسوة ومن مصادرة لحرية الرأى . فتدخل
بعض الوسطاء فى الأمر ، ونصحوا الأمير بأنه يجب
ألا يسمح بأن حكما قضائيا صادرا من جهة قضائية عليا
يسجل أن شاعرا من عصره هاجمه وهجاه فافتنع الأمير ،
وجاء يوم الاستئناف فصدر الحكم ببراءته . وذلك قياسا
على حالة مماثلة سبقت هذه الحالة بقليل ، حين كتب العقاد
مقالا عنيفا هاجم فيه الخديو لأنه تلكأ فى اصلاح الأزهر
بعد وفاة الامام محمد عبده ، ورتى تقديمه الى محكمة

الجنایات لمجاكمتہ ولكن مستشاری الخدیو رأوا أن
یطوى الأمر وأن يعاقب عليه العقاد عقاباً مستخفياً بعد حين .

وثمة قضية أخرى حبس بسببها المرحوم مصطفى
لطفى المنفلوطى ، من باب الظنة لا من باب اليقين فقد كان
الخدیو عباس يقضى الصيف فى القسطنطينية ويوم عودته
نشرت قصيدة تقول :

قدوم ولكن لا أقول سعيد

وحكم وان طال المدى سييد

رحلت ووجه الناس بالبشر باسم

وعدت وحزن فى القلوب شديد

علام التهاني هل هناك مآثر

فتحمد ام معنى لديك حميد

تذكرنا رؤياك أيام أنزلت

علينا خطوب من جدودك سـود :

ومتا بكم مقدونيا فأصابنا

مصوب سهم بالبلاء سديد

كان ذلك فى سنة ألف وثمانمائة وتسع وتسعين بعد

تولى عباس الثانى الحكم بقليل واتهم السيد محمد توفيق

البكرى ، لما كان بينه وبين عباس من الخلاف كما اتهم
على الغياتى ، واتهم بصفة أصلية ناشر القصيدة أحمد
فؤاد المعروف بأحمد فؤاد الصاعقة ، وانتهى الأمر •

أما السبب فى خشيته أحمد فؤاد الصاعقة فى الأمر
فاليه يشير العقاد فى كتابه « رجال - عرفتهم » بقوله انه
ذلك الكتاب الذى كتب به الى الخديو مباشرة بمعد أن
انقطعت عنه المعونة السرية التى كان يأخذها كل شهر من
الديوان الخديوى :

أن كان بعضهم يظفر بمطايا الأمير لأنه ينظم فهو
حقيق بهذه المطايا لأنه يشر وان كان لعب من العيوب
فهو - أى فؤاد الصاعقة - يضم ازاره بحمد الله على تلك
العيوب وعلى ما هو شر منها وزيادة عليها ••• ثم يمتضى
فى تعداد عيوبه غير مقتصد فيها كأنها عيوب ضحية من
ضحايا • •

حفلة ازاحة الجبة

نسمر الليلة مع سهرة من سهرات رمضان قضيناها منذ خمس وثلاثين سنة فى مقهى باب الخلق بالقرب من دار الكتب بالقاهرة فى حفلة سمينها « حفلة ازاحة الجبة » عن جسد الأستاذ الشاعر م.م الذى أراد أن يتحول الى الزى الافرنجى بعد أن أقام على الزى العربى زمنا طويلا فاقترضناها فرصة لاقامة حفلة من غرائب الحفلات التى كنا نقيمها فى رمضانات تلك الأيام ، وكانت كلها - فى الحقيقة غرائب .

وطلب المحتفل به بادى الأمر أن يكون الحفل مختصرا ومقتصرا على المدعوين من الأدباء والشعراء ومحبي الأدب والشعر ، ووقعنا فى حيرة كيف نقيم حفلا فى مقهى عام ثم نشترط ألا يحضره غير الذين توجه اليهم الدعوات .

واستقر رأى أخيرا على أن يقام الحفل بعد منتصف

الليل ، وبعد أن يخلو المقهى من مرتاديه المعتادين وغير
المعتادين ، وطبعت بطاقات الدعوة هكذا « تشرف لجنة
الاحتفال بزاحة الجبة عن جسد الأستاذ الشاعر الشيخ
أفندي م.م بدعوة حضرتكم للحضور والمشاركة فى رفع
الجبة وذلك بعد منتصف الليلة الواقعة بين يومى الخميس
والجمعة الموافقين كذا من رمضان والعاشرة عندكم فى
المسرات » .

وفى الموعد المحدد توافد المدعوون على المقهى وكانوا
فى الحقيقة من صفوة القوم وعلية الأدياء والشعراء ومحبي
الأدب والشعر ، وأعد حبل معلق فى بكرات بسقف المقهى
وفى آخره خطاف حديدى يرفع ما يسكن به عند
جذب الحبل ، وجاء المحتفل به فى زيين مختلفين أحدهما
فوق الآخر فأما الزى التحتانى فبذلة أفرنجية. أنيقة التفصيل
يزين جيب صدرها منديل حريرى هفهاف ، ويتوسط
رباط الرقبة دبوس أنيق لم يكن من الذهب ولكنه مغطى
بقشرة من الذهب ، وأنا أعرف هذا لأن هذا الدبوس
وحده كان هدية لجنة الاحتفال الى المحتفل به . وأما الزى
الفوقانى فجبة قديمة فسخ لونها فتحول الى عدة ألوان .

ووقف موم تحت الجبل وكان بالجبل خطافان ،
وركب بكل كنف، من كنفى الجية خطاف ثم ابتداء شد
الجبل ، وصاحبنا ينسلخ من نجته اسلاخا وسط تصفيق
حاد جدا من جمهرة الحاضرين الذين وقع بعضهم على
الأرض من شدة الضحك . حتى اذا تخلص من الجية
تخلصا تاما وعلت فى الفضاء فوق رموس الحاضرين فارغة
مما كان يملؤها منذ حين ابتدأت الحفلة المشهودة بكلمة
من عريف الحفل الأستاذ الأديب « ع.ش » الذى قال ان
الأستاذ موم يتطور وانه بدأ الآن طورا جديدا من أطوار
حياته وطلب من الحاضرين أن ينشدوا معه نشيد الحفل
الذى ألفه واحد من لجنة الاحتفال ولحنه واحد منهم
أيضا ، والذى أذكر منه الآن :

مهدى مهدى مهدى مهدى

كنت الشيخ نصرت افندى

وتركت نشوقا وسعوطا

وغدوت رقيقا كالورد

مهدى مهدى مهدى مهدى

اليوم غدوت أفندي

مفروق الشعر على الغزة !

تحمل طربوشا « مغوجا »

كفتاة قد حملت جره !

تمشى تمايل بالقصد

مهدى مهدى مهدى مهدى

ثم مضى الشعراء بعد ذلك ينشدون ما أعده من الشعر لهذه المناسبة السعيدة فسمعا ما قاله الدكتور كامل أبو العينين ، ثم الأستاذ طه محمد حراز ثم أحمد مخيمر ثم العوضي الوكيل ثم طاهر أبو فائز ؛ ثم كلمات من هلال أحمد شتا وعلى طلعت ، والمرحوم طه عبد البقي سرور نسيم ؛ ولو كنا نمتلك مسجلا ، أو لو كانت المسجلات قد اخترعت وذاعت لسجلنا هذا الاحتفال الذي أنهاه آذان الفجر في تلك الليلة الضاحكة ، وحاولت بعد سنوات أن أجمع ما قيل في هذه الحفلة الضاحكة فلم أستطع وضاع منها ما كان يمكن أن يضاف الى تراث أدبنا الفكه الطريف لكنني مع هذا كددت الذهن وجريت وراء الأحياء فصررت

وكان مما قاله أحد الشعراء ولا أذكر اسمه الآن
ولعله كان يلبس الزى العربى كما يبدو من أبياته الآتية :

ودعت عهدا تولى
وجبة تدلى

أأنت حقا افدى
بين البرية أم لا ؟

فهل حذقت لفات الـ
أقوام أسما وفعلا

ام لا تزال مكبلا
على سعاد وليلى

وتستعيد الحواشى
والشعر جدا وهزلا

وتقرأ النحو والصر
ف والعروض المحلى

فى ملتزمات صبخار
تكاد فى اليد تبلى

لبست زيا جديدا
 فهل تبدلت عقلا !
 وهل تبدلت روحا
 وهل تفسرت فعلا
 الزى ليس بشيء
 فلا تحمله حملا
 فأنت شيخا أنيقا
 أنقى وأسمى وأحلى
 فلست أرشق قدا
 ولست أجمل شكلا
 لسوف . ابقى على جبـ
 تى ودادا ووصلا
 ولن أغير شيئا
 حاشا - لثلى - وكلا

ووقف هلال أحمد شتا يتلو علينا مقامة من مقاماته
 تتضمن حوارا بين شيخ وأفندى وقد سأله أن يدلنى عليها
 أو على جزء منها فاعتذر بأنها ضاعت فى نقل متاعه وكتبه

من بيت الى بيت ولكنه ذكر منها هذا المستهل قال :

حدثنا محاور المجاور قال : ختمت القرآن العظيم فى
العاشره ، ونودى بالذهاب الى الأزهر للمجاورة فى مدينة
القاهرة فمضيت الى الخياط والتمست لديه بحق المجبة ، أن
يسرع فيخيط لى جبة ، من الجوخ الأزرق الصافى الأنيق
وأن يصنع لى قفطانا من آلاجة الحرير الرقيق ، حتى
يلبسنى العلم كله حين ألبسها واتخذت عمامة ليملائى الوقار
كله حين أكبسها ولم أنس ثلث المسبحة الكهرمان لأذكر
الله عليها كل أوان :

يا لابس الجبة والقفطان
من خير ما قد نسجت يدان
تخطر كالأمير فى البستان
وقاصد الأزهر فى الركبان
مسبحا وحامل القرآن
دع عنك ذكر الغيد والغواني
وأقصد الى البديع والبيان

ولم يذكر هلال بعد ذلك من مقامته هذه شيئا ولعله
يجدها أو يجددها فنستمع بها •

رثاء الحيوان

ذكرتني قصيدة ابن عنين في رثاء حمار له مات
بالموصل ورويناها في حديث من هذه الأحاديث وفيها
يقول :-

لا تبعدن تربة ضمت شمائله
ولا عدا جانيها العارض الهطل
لقد حوت غير مكسّال ولا رعش
ان قيد القود من دون السرى الكسل
قد كان ان سابقته الريح غادرها
كأن أخصصها بالشوك - يتعمل
لا عاجزا عند حمل المثقال ولا
(يمشى الهوينا كما يمشى الوجى الوحل)
ذكرتني هذه القصيدة الطريفة بحفلة طريفة أقامها
أحد الأصدقاء لتأبين عجل نفق لصديقنا الشاعر الريفى

أحمد القرعيش ، منذ نحو ثلاثين سنة ، وقد وقف أحد
الشعراء يلقي مراثيه للعجل الفريد على لسان صاحبه أحمد
القرعيش ، فقال :

يا باهر الذيل والقرون
أبكىك بالدمع الهنون
حاذرت فيك المنون حتى
وقعت في قبضة المنون
يا صاحبي في خواء عيشي
ويا رفيقي ويا خديني
غادرتني دون ما وداع
ولست بالفادر الخثون
وكنت في منزلي مصونا
واليوم غال الردى مصونى
زادت شجونى عليك حتى
أوشكت أقصى من الشجون

كم خرت فى منزلى خوارا
 فى السمع أحلى من اللحن
 وكنت ذخرى على الليالى
 بلحك الرائع السمين
 ولم أدورك فى السواقى
 ولا النواريج فى الجرين
 فأنت اسمى لدى قدرا
 من أن ترى موضع المئين
 عليك أبكى بكاء حر
 راع لعهد الوفاء أمين

وهذا ما وعته الذاكرة من هذا الحفل ، الذى شارك
 فيه على ما أذكر نفر من الأدباء ممن ند ذكرهم عن ذاكرتى
 بعد هذا الزمن الطويل .

وأما وقد دخلنا فى مراثى ما لا يعقل من الحيوان
 فأتنا نذكر قصيدة امتلأت بذكرها كتب الأدب والتاريخ فى
 رثاء هر للشاعر أبى بكر بن العلاف أحد ندماء الامام
 المعتضد بالله من شعراء القرن الثالث الهجرى ، ذكروا

أن هذا الهر كان يدخل أبراج الحمام التي لجيران صاحبه
ويأكل فراخها ، وكثر ذلك منه ، فأمسكه أصحابها فذبحوه
فكانت هذه المريثة الفريدة وهي قصيدة طويلة جدا روى
أكثرها ابن خلكان ، ومنها :

يا هر فارقتنا ولم تعد
و كنت فينا بمنزل الولد
فكيف تنفك عن هواك وقد
كنت لنا عدة من العدد
تعلمد عنا الأذى وتحرسنا
بالغيب من حية ومن جرد
وتخرج الفأر من مكانها
ما بين مفتوحها الى السدد
يلقاك في البيت منهم مدد
وأنت تلقاهم بلا مدد
لا عدد كان منك منفلتا
منهم ولا واحد من العدد
لا ترهب الصيف عند هاجرة
ولا تهاب الشتاء في الجمد

وكان يجرى ولا سداء لهم
أمرك فى بيتا على سد

حتى اعتقدت الأذى لجيرتنا
ولم تكن للأذى بمعتقد

وحمت حول الردى بظلمهم
ومن يحم حول حوضه يرد

وكان قلبى عليك مرتعدا
وأنت تنساب غير مرتعد

تدخل برج الحمام مثدا
وتبلغ الفرخ غير مثد

أطعمك الغى لحمها فرأى
قتلك أربابها من الرشد

لم يرحموا صوتك الضعيف كما
لم توث منها لصوتها الفرد

أذاقت الموت ربهن كما
أذقت أفراخه يدا بيد

عشت حريصا يقوده طمع
ومت ذا قاتل بلا قسود
ألم تخف وثبة الزمان كما
وثبت في البرج وثبة الاسد
لا بارك الله في الطعام اذا
كان هلاك النفوس في المعد
كم دخلت لقمة حشاشره
فأخرجت روحه من الجسد

وذكرت بعض كتب الأدب أن القصيدة رمزية ،
والمرئى فيها ليس هرا ولا كان هناك برج حمام ولا فراخ
وانما كان للشاعر غلام ، عشق جارية لأحد جيرانه ،
وتواترت أنباء تلاقيهما فى الخفاء ، فأمسك بهما مولى الجارية
فقتلها معا ، وسلخهما وحشى جلودهما تبنا .

وماتت ببغاء لأحد أصدقاء أحمد بن يوسف الكاتب
وكان لصديقه هذا أخ لا يعجبه اسمه عبد الحميد فكتب
أحمد بن يوسف يعزى صديقه فى ببغائه :

أنت تبقى ونحن طرا فداك
أحسن الله ذو الجلال عزاك

فلقد جل خطب دهر أناكا
 بمقادير أتلقت بفساكا
 عجا للمنون كيف أتها
 وتخطت عبد الحميد أخاكا
 كان عبد الحميد أصلح للمو
 ت من اليبغا وأولى بذاكا
 شملتنا المصبيتان جميعا
 فقدنا هذه ورؤية ذاكا
 وذكر بعض النقاد أن المعنى مأخوذ من أبيات لابن
 الرومي ، يقول فيها :-
 قل لأبي القاسم المرزا
 قابلك الدهر بالعجائب
 مات لك ابن وكان زينا
 وعاش ذو الشين والمعائب
 حياة هذا كموت هذا
 فلست تخلو من المصائب
 وندنو من ختام هذا الحديث فنذكر قصيدتين

لشاعرين معاصرين مات لأحدهما خروف من أخرفة العيد
كان مهدي اليه فكتب فيه أبياتا لطيفة بنسوان الخروف
المتحر ، ورد عليه صديقه الشاعر الثاني بتعزية لطيفة قال
الأول وهو الشاعر محمد الأسمر :

ولم أزل مبتهجا منتظرا
قدومه مطبلا مزمرا
حتى علمت انه فجاءة
مات ولاقى حتفه مشمرا
وانه استعجل ما كان له
- لو لم يمت - مهيتا مقدر
من لامة في أمره فأننى
عذرتة والله فيمن عذرا
لما أحسن انه هدية
لشاعر فكر ثم انتحرا
وقال الثاني وهو الشاعر على الجندى :
فقدك الأحور السمين على العيد
بلاء طاشت له الألباب

ان تكن صابرا فلست ترانى
صابرا ما توات الاحساب

واتحابى عليه قرح جفنى
وقليل لثله الانتحاب

أين منى « الرقاق » فى رقة الشو
ف اليه وأين منى الكباب

أين منى الشواء يملأ سمعى
بنشيش تلذذ الأعصاب

يا لها أكلة حسبت لها الأيا
م ضاعت وضاع فيها الحساب

كيف مات الخروف قل لى لم
يمسه سقم ولا عداه شباب

أتراه تعجل الموت خوف الـ
موت والخوف للنفوس تباب

أم تراه قد كان صبا معنى
والصبابات للردى أسباب

قد قنعا من الضحيا بديك
وقليل المقل ليس يعاب
وسلامي عليك لا بل سلامي
لثريد تحدى اليه الركاب
لو جمعت الاحزاب يوما عليه
لتناست أحقادها الاحزاب

واذا كانت هذه المرائى فكاهية ساخرة فثمة قصيدة
فى رثاء الحيوان باكية حزينة تستجيش الدموع تلك هى
قصيدة العقاد فى رثاء كلبه بيجو ، وكان له فى بيته المنزل
أو فى صومعته الهادئة أنيسا وصديقا ونكتفى بذكر المقطع
الأول منها يقول العقاد :

حزنا على بيجو تفيض الدموع
حزنا على بيجو تهيج الضلوع
حزنا عليه جهد ما أستطيع
وان حزنا بعد هذا الولوع
والله يا بيجو لحزن وجيع

التصحيف والتحريف

التصحيف كما هو ظاهر مشتق من الصحيفة ، ومعناه وقوع الخطأ فى قراءتها وأغرب ما فى هذه المذة ما ورد فى القاموس ان الصحفى هو من يخطئ فى قراءة الصحيفة فلا يقرؤها على وجهها الصحيح ، أما التحريف فمشتق من الحرف والتحريف الميل ؛ ومنه القلم المحرف الذى يقطعه من يبريه الى ناحية ؛ ويقول الشاعر القديم فى وصف حصان :

كأن أذنيه اذا تشوفا
قادمة أو قلما محرفا ...

وتحريف الكلام تغييره بقراءته أو كتابته على غير وجهه ؛ كأنك تغير منه حروفا تتغير بتغيرها معانيه وقد ورد فى القرآن الكريم قول الله تعالى : -

« من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه

ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا
بألسنتهم وطعنا فى الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا
وانظرونا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا
يؤمنون الا قليلا » •

« فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية
يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به » •

« أقطعهم أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم
يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم
يعلمون » •

ويقع التحريف والتصحيف كثيرا فى الكتب
والصحف والمجلات ومازلت أذكر ذلك البيت الذى نشرته
صحيفة الأهرام القاهرية منذ أكثر من ثلاثين سنة من
قصيدة لى غزلية وقد أسقط منه جماع الحروف حرفا وكان
أصل البيت هكذا :-

وحديث العيون أبلغ تأنيبـ

ـرا فقولى كلامك البقريا

لكن جماع الحروف أسقط القاف من الكلمة الأخيرة

وجعل ختام البيت « فقولى كلامك العبريا » فظن القراء أن
الخطاب موجه الى فتاة يهودية تتكلم اللغة العبرية .

ومن التصحيف والتحريف ما يجعل المعنى الجديد
بشعا ، من ذلك ما وقع فى وصف مهرجان مبايعة أحمد
شوقى بامارة الشعر سنة ألف وتسعمائة وسبع وعشرين
وكان المعروف يومذاك أن نفرا من الأدباء على رأسهم
العقاد والمازنى يعارضون فى هذه الامارة ، وجاء وصف
المهرجان فى احدى الصحف فى اليوم التالى ومنه قصيدة
حافظ ابراهيم وفيها هذا البيت :

أمير القوافى قد أتيت مبايعا

وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

لكن جماع الحروف أبى الا أن يسقط القاف من
كلمة الشرق فصار البيت هكذا :

أمير القوافى قد أتيت مبايعا

وهذى وفود الشر قد بايعت معى

وظنها شوقى وبعض أصحابه دسيسة من العقاد
والمازنى وكلاهما صحافى وله بالصحف صلات وثيقة .

ومن أطرف ما يروى فى هذا المقام ، ما نشرته
صحيفة كانت تصدر فى الثلاثينات من هذا القرن باسم
صحيفة الوادى وكان يحررها الدكتور طه حسين وقد جاء
فيها خبر يفيد أن نقابة العمال أوفدت بعض أعضائها
ليلغوا دولة رئيس الوزراء تأييدهم له فجاء الخبر ان
النقابة أوفدت بعض أعضائها ليلغوا دولة رئيس الوزراء .

وحين أصدر الأستاذ الشيخ محمد الخضرى سلسلة
كتبه فى التاريخ الإسلامى ، هز هذا النشاط الفكرى
والثقافى احدى الصحف فأرادت أن تتنى على همة الشيخ
الخضرى لكن جماع الحروف فى تلك الصحيفة أبى الا
أن يجيء الثناء منصبا على عمه الشيخ الخضرى لا على همة
لأنه جمع العين فى الحروف بدلا من الهاء فكان هذا الثناء
العجيب !

وفى تركيب أعمدة احدى الصحف وقع شئ غريب
جعل كثيرا من قراءتها يغفرون أفواههم من الدهشة فقد
نشرت الصحيفة خبرين متجاورين فى ذيلى عامودين أما
الأول فخبير زواج عروسين ختمته الصحيفة بالعجالة
التقليدية « فتدعو لهما بالسعادة والهناء والتوفيق » وأما

الثانى فخبّر سطو لصين على أحد المتاجر وختمته بهذه العبارة « وسيقا الى السجن جزاء ما ارتكبا » لكن مرتب الأعمدة فى الصحيفة وضع كلا من الخاتمتين مكان الأخرى فجاء ختام خبر الزواج بعد ذكر اسمى العروسين « وسيقا الى السجن جزاء ما ارتكبا » وجاء ختام خبر اللصين « فندعو لهما بالسعادة والهناء والتوفيق » •

ومن هذا الباب ما روته احدى الصحف الأمريكية حديثا اذ ذكرت أنه سقط أحد السطور من مقالة عن فيلم سينمائى وسط خبر حول خطاب كان من المقرر أن يلقيه الرئيس الأمريكى وقد جاء الخبر فى الصحيفة كالآتى :
يلقى الرئيس الأمريكى اليوم خطابا فى قاعة اجتماعات المدينة ، لكم هو مخيف كالأشباح ومزعج !

وفى مجلس المرحوم الأستاذ ابراهيم دسوقي أباطة باشا وقع الخلاف بينى وبين المرحوم كامل الكيلانى حول سطر فى أحد كتب الجاحظ حين تحدث عن واحد من الأقداد فى الضرب والغناء فقال : « وكان أحد الناس فى صناعة الضرب » وقال الكيلانى انها بالذال « كان أحد الناس فى صناعة الضرب » وكانت حجته أن كل واحد فى

الدنيا انما هو أحد الناس واذن فلا معنى لهذا الكلام وكانت خلاصة الرد عليه ان الكلام لا يؤخذ بمعناه الحرفي ، فأنت حين تقول فلان رجل لا تقصد هذا الخبر المجرد الذى يفيد مغايرته للأثنى ولكنك تريد انه يتصف بما فى الرجولة الحق من صفات وذلك علاوة على أن الحذف معناه السرعة وبه يوصف الحصان فيقال حصان أخذ أى خفيف سريع ويوصف السيف به كذلك . فيقال سيف أخذ ولا معنى لأن يوصف المغنى بالسرعة فهى ليست مزية من مزايا صناعة الضرب والطرب . ولم يكن الأمر الا تصحيحا بنقط الدال .

وروى لى المرحوم الأستاذ أنطون الجميل باشا رئيس تحرير الأهرام القاهرية الأسبق ، وكان مولعا بتسقط الأخطاء المطبعية الصحفية أن صحيفة محلية كانت تصدر باللغة الفرنسية بالقاهرة نشرت خبرا عن منح أحد المواطنين وسام اللجيون دونير « أى وسام الشرف » من الحكومة الفرنسية ، وشفعته بالتهنئة المناسبة لكنها غيرت بعض الحروف الفرنسية من اسم الوسام فجعلته « ليجيون

دورور ، فأصبح وساما للشناعة والفضاعة بعد أن كان وساما
للشرف والفخار .

ومن كثرة ما وقع في كتب التراث العربي القديم من
التصحيف والتحريف نشأت صناعة التحقيق وذلك
للرجوع بالنص المحرف أو المصحف الى أصله الحق ،
أو الى أقرب ما يكون الى أصله الحق ويقتضى ذلك الاطلاع
على كل النسخ الموجودة ، المخطوط منها والمطبوع واتخاذ
احداها عمدة أو أصلا باعتبارها في نظر المحقق - أكثر
النسخ الموجودة صحة أو أقربها الى الأصل ثم تستعرض
اختلافات النسخ ، ويرجع المحقق وجهها من وجوهها .
ولا جدال في أنها صناعة مرهقة مضنية وتقتضى حضور
ذهن وسعة اطلاع وحسن تأت في التوفيق بين النصوص
المختلفة .

ونظن أن من بين أسباب التصحيف والتحريف أن
الكتابة العربية القديمة كانت حتى عصر الحجاج بن
يوسف الثقفي بلا نقط، ولا ضبط بالشكل، ذكر ابن خلكان
في كتابه « وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان » عند ترجمته
للحجاج بن يوسف الثقفي قال : وحكى أبو أحمد

العسكري في كتاب « التصحيف » أن الناس غبروا يقرءون في مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه نيفا وأربعين سنة الى أيام عبد الملك بن مروان ثم كثر التصحيف وانتشر بالعراق ففزع الحجاج بن يوسف الى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشابهة علامات فيقال ان نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقط أفرادا وأزواجا وخالف بين أماكنها ففبر الناس بذلك زمانا لا يكتبون الا منقوط ، فكان في استعمال النقط أيضا يقع التصحيف فأحدثوا الاعجام فاذا أغفل الاستقصاء عن الكلمة ولم توف حقوقها اعترى التصحيف فالتمسوا حيلة فلم يقدرُوا فيها الا على الأخذ من أقواء الرجال بالتلقين .

أما الرجل الذى اهتم بأن يضع كتابا فى التصحيف « فهو أحد علماء القرن الرابع الهجرى وهو أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري ، وكان رجلا ذا ثقافة فارسية وعربية فقد ألف كتابا فى « التفضيل بين بلاغتي العرب والمعجم » وهو خال أبى هلال العسكري عالم النقد والبلاغة المعروف وأستاذه .

واذا كان الشئ بالشئ يذكر فقد وكلت مجلته

الأزهر يوما الى الشيخ محب الدين الخطيب والى مؤلف
هذا الكتاب أن يختارا لها مصححا لتجارب طبعها فاتفقا على
أن يكون امتحانه فيما سيعمل فيه وكان الامتحان بالفعل
بضعة أسطر من كلمات مجموعة بحروف المطبعة وفيها
تصحيف كثير يباعد بينها وبين أصلها كثيرا أو قليلا وكان
المطلوب من المتقدمين للامتحان أن يصححوا هذه الكلمات
ويعيدوها الى أصلها أو الى وضع أقرب ما يكون الى هذا
الأصل برعاية معناها العام وبرعاية معانيها كلمة كلمة
وعبارة عبارة •

فنون وشجون

تعالوا نتحدث فى فنون من الحديث وشجون من
القول ، تفلسف حينا وترامى خلف النحاة والنقاد
والرواة حينا آخر ، ونبدأ بقول ربعة البرقى :

لستان ما بين اليزيديين فى الندى
يزيد سليم والأغر بن حاتم
يزيد سليم سالم المال ، والفتى
فتى الازد للأموال غير مسالم
فهم الفتى الازدى اتلاف ما له

وهم الفتى القيسى جمع الدراهم
فلا يحسب القيسى انى هجوته
ولكننى فضلت أهل المكارم

الشاعر يضع عنوانا لحديثه عن اليزيديين ، ذلك
العنوان هو الندى ، وفى الشطر الثانى من البيت الأول ،

يبين للسامع من يريد باليزيدين ، واليزيدان تثنية لليزيد ،
ومتى استبعنا لأنفسنا تثنية العلم فقد افترضنا بادىء الأمر
تكريره ، لأن من شروط المثني أن يكون نكرة ألم تسمع
الى قول من قال :

شرط المثني أن يكون معربا

ومفردا منكرا ما ركبا ...

ونحن لذلك نستحسن من الشاعر ان يبدل من
اليزيدين بدلا يحددهما تحديدا واضحا . لنعرف كلا
منهما معرفة تزيل التكرير الذى كان قد لحق بهما قبل
التثنية والشاعر قد عقد موازنة بين هذين اليزيدين فى
موضوع واحد هو الندى ، فأما أحدهما وهو يزيد سليم
فهو بخيل ، يسالم المال فلا يبذله فى كسب الحمد ونباهة
الذكر ، وهمه جمع الدراهم ، وأما الآخر وهو الأغر بن
حاتم الأزدي ، فقد صرف همه كله الى اتلاف المال فى الكرم
وهو لذلك لا يقتو عدوا للمال ، ولا يهادنه ولا يسالمه ،
واليزيدان لذلك ضدان ، أحدهما الى أقصى الطرف من
اليمن والثانى الى أقصى الطرف من اليسار وعبر الشاعر عن

هذا البعد السحيق بينهما بقوله « شتان » ثم يطلق الشاعر
بيته الأخير :

فلا يحسب القيسى انى هجوته
ولكننى فضلت أهل المكارم

ولا يدري أنه أثار قضية خطيرة من قضايا المنطق ،
فإن أحدهما فى نظره كريم غاية الكرم ، والكرم صفة
ايجابية لأن الكريم يفعل من الأفعال ما يقتضينا أن نصفه
بهذه الصفة ، والثانى رجل بخيل ، والبخل صفة سلبية ،
لأن البخل لا يفعل من الأفعال الكريمة شيئا ، أو هو
يفعل أفعالا لا تلحق به صفة الكرم ، فأما ما يفعله من
الأفعال التى تقتضينا أن نسمه بالبخل فهى فى نظر الشاعر
لا تنزل به الى أدنى من درجة الصفر فى مراتب الناس ،
فهو يقف عند الحد الفاصل بين الكرماء من الناس وغير
الكرماء ، وغير الكرماء ناس عاديون ، ولكن الكرماء هم
وحدهم فوق العاديين من الناس ، فإذا نحن جئنا الى يزيد
الثانى فقلنا له انك تسالم مالك فلا تهلكه فى المعروف ،
وانك تصرف همك كله الى جمع الدراهم ، فأننا حينئذ
لا نكون قد هجونا ، ولا آذينا بشيء ، لأن الأمر هنا

كأن تقول له أنت انسان عادى ، تقع عند درجة الصفر
فى تصنيف الفائقين وغير الفائقين من الناس .
هما صنفان اذن فى نظر هذا الشاعر ، فضائل
يحتويها ناس ، وهؤلاء معدوحون وخلاء من الفضائل عند
ناس ، وهؤلاء غير مذمومين ، وليس هجاء لهم أن تقول انهم
بخال أو انهم يسالمون المال ويجمعون الدراهم ، وهذا
قرار أخلاقى خطير من هذا الشاعر ، ان البخيل رجل
لا يذم لبخله ، أو يجب ألا يذمه الناس لبخله فاذا مدحنا
غيره بالكرم لم يكن الأمر فيه الا مسألة تفضيل أعنى مسألة
وضع درجات لمراتب الناس :

وندع هذا الشاعر المتفلسف لنستمع الى بشار يهجو
هجاء غير مباشر ، أو يستطرد كما يقول أهل البلاغة وعلماء
البيان ، يقول بشار :

خليلى من كعب أعينا أخاكما
على دهره ، ان الكريم معين
ولا تبخلا بخل ابن قرعة انه
مخافة ان يرجى نداء حزين
اذا جثته فى حاجة سد بابيه
فلم تلقه الا وانت كمين

هذا الهجاء يدخل اليه بشار من مدخل برىء ، فهو لا يقصد الى هجاء ابن قزعة وما هو بسبيل ذلك على الاطلاق ، انه يلتمس معونة خليليه الكمييين ، لأنهما كريمان والكريم معين كما يقول ذلك ويؤكدده .

انه أراد فقط أن ينبههما الى طريق يجب أن ينأى عنه كرمهما ، هو طريق ابن قزعة ولكنه خشى ألا يكون سلوك ابن قزعة هذا واضحا لهما ، فهمس في أذنيهما : ان ابن قزعة فى حزن مقيم ، لأنه خائف دائما من أن يتقدم أحد فيرجو نواله ، ويستندى كفه العطاء ، وهذا الخوف معنى يلزمه ويتلبس به تلبسا لا فراق له ولا فكاك منه فهو هكذا خلق ، يخاف أن يسأله سائل معونة ، ويملك الحزن عليه أقطار نفسه ، وهذا معنى عام من أخلاق ابن قزعة ، صوره بشار - على عموميته - تصويرا واضحا ، لكن التخصيص هنا لازم ، كأن يضرب مثل لهذا الخوف الدائم الذى يغشى نفس ابن قزعة ، هنا تتفق ملكة الشاعر عن صورة نادرة من تصاوير البخلاء ، فهو أبدا محتجب ، لا يسمع نداء ولا يرد جوابا وبابه يسد فى وجوه طلاب الحاجات ، صحيح أن بعضهم قد يقنصه فيصيه فبلاقيه ،

ولكن ذلك لا يكون الا بتدبير حربى دقيق التخطيط وخطة مدروسة منظمة ، لا بد من أن ينصب له كمين ، فاذا ظهر أطبق عليه الكمين فوقع فى الحباله ...

إذا سألت نفسك سؤالاً : ما العنوان المباشر الذى يمكن أن يوضع لأبيات بشار ؟ انه بالتأكيد لن يكون هجاء ابن قزعة ، ولكنه قد يكون نصيحته لخليه من كعب ، مع ان أوضح المراتب فى هذه الأبيات الثلاثة ليس الا هجاء ابن قزعه وتصويره بهذه الصور المضحكة ومن هنا وقعت المفارقة التى جعلت لهذه الأبيات قيمة فنية وأدبية عالية .

ويصل بنا الحديث الى أبى الصقر اسماعيل بن بلبل ومادحه ابن الرومى ونقرأ فى صفحات التاريخ شكاة الشاعر من ممدوحه ، ثم هجاءه له ، مدحه أولاً بقصيدة نونية بديعة قال فيها :

قالوا أبو الصقر من شيان قلت لهم

كلا لعمري ولكن منه شيان

وكم أب قد علا بابن ذرا شرف

كما علا برسول الله عدنان

فتار المدوح وقال : أنا بشيان ليست شبيان بى مع
 أن الشاعر قد سبق هذا الاعتراض بالرد عليه حين قال :
 ولم أقصر بشيان التى بلغت
 بها المبالغ أعراق وأغصان
 لله شبيان ، قوم لا يشيهم
 روع اذا الروع شابت منه ولدان
 لكن المدوح حرمه من الجائزة وطرده . . فخرج
 الشاعر جرحا فى قلبه لا يندمل وكانت النتيجة المحتومة
 ان امتلاء ديوان الهجاء بأبى الصقر اسماعيل بن بلبل بمثل
 قول ابن الرومى :

عجب الناس من أبى الصقر اذ
 ولى بعد البطالة الديوانا
 ولعمري هل ذاك أعجب من أن
 كان علجا فصار من شيانا
 ان للحظ كيمياء اذا ما
 مس كلبا أحاله انسانا
 يفعل الله ما يشاء كما شاء
 لمن شاء كانا ما كانا

وبمثل قوله وقد أصابت أبا الصقر نعمة :
 خلق أبا الصقر فكم ناهض
 نخر صريعا بعد تحليق
 زوجت نعى لم تكن كفؤها
 فصانها الله بتطبيق
 لا بوركت نعى تسربلتها
 كم حجة فيها لزنديق

الشاعر هنا مغيط مخنق ان أصابت خصمه النعمة ،
 فهو يأمل أن تليها النعمة فان الطائر الملحق يسف بعد
 حين ويسقط ، ويخر صريعا ولئن تكن أصابته نعمة فهو
 غير أهل لها ومن ثم ساغ أو صرح لنفسه - ان يدعو الله
 ليصون تلك النعمة بزوالها عن غير مستحقها • ثم يدعو
 عليه بعدم البركة لأن النعمة في يدي غير المستحق تشكك
 الناس في عدالة الأقدار وهكذا استطاع ابن الرومي أن
 يبرر حنقه تبريرا فنيا رائعا •

الحجاج بن يوسف

تحدث الآن في الحجاج بن يوسف الثقفي ،
فنستعرض بعض الجوانب من حياته التي لم تزد على خمس
وخمسين سنة ، لقد كان الحجاج عجيبا ، في تشأته وتكوينه
النفسى ، وارتقائه أوج الشهرة في زمن قصير ، بدأ حياته
معلما لصبيان الطائف ، ثم التحق بشرطة ابن زباع ثم
تولى أمر عسكر عبد الملك بن مروان ، لما اشتهر عنه من
القسوة والغلو في العقوبة ، ووجهه عبد الملك الى الحجاز
ليخمد ثورة عبد الله بن الزبير فنجح في اخمادها ، ثم تولى
أمر العراق فحكمه بالسيف والحديد عشرين سنة طوالا ،
قتل فيها خلقا كثيرا ، أشهرهم سعيد بن جبير الذي قال
أحمد بن حنبل فيه قوله المشهورة : قتل الحجاج سعيد بن
جبير وما على وجه الأرض أحد الا وهو مفتقر الى علمه .
وقد امتلأت كتب السير والتواريخ بكثير من الهوامش
حول حادثة قتل ابن جبير وقد ذكر بعضها أن الحجاج حين

حضرتة الوفاة كان ينيب عن وعيه ثم يفيق ويصيح مالى
ولسعيد بن جبير ، كما قيل انه مرض قبل الموت مدة فكان
اذا نام رأى سعيد بن جبير آخذا بمجامع ثيابه ويقول له :
يا عدو الله فيم قتلتي فيستيقظ الحجاج مذعورا ويقول مالى
ولسعيد بن جبير •

وقبل أن يقتل الحجاج سعيد بن جبير جرت بينهما
مناقشات طويلة ، أتمى ابن خلكان فى الوفيات على أكثرها
وكلمها تشير الى جراءة ابن جبير وشجاعته ، وتنفى عنه
الخور والجبن عند سماع الحكم عليه بالاعدام وعند تنفيذه ،
وحول هذه الأحاديث ودلائلها ، أثبتوا أن سعيدا حين
مات مقتولا بسيف أحد شرطة الحجاج ، شخب منه دم
كثير ، لم يشخب مثله من قتل من قبل ، وسئل فى ذلك
أطباء ذلك الزمن فقالوا هذا قتل ونفسه معه ، والدم تبع
للفنس ، أما من قتلوا قبله فقد قتلوا ونفوسهم ذاهبة من
الخوف ولذلك قلت بماؤهم •

لكن القتل وسفك الدماء ليست هى كل ما يشتهر به
الحجاج بن يوسف ، وان كانت قد جرت على أفانين عجيبة
غريبة لم يسمع بمثلها من قبل ، فالحجاج أحد فصحاء

العرب المشهورين ، وحسبك بأبي عمرو بن العلاء حين يقول : ما رأيت أحدا أفصح من الحسن البصرى والحجاج ، والحجاج هو صاحب يد طولى على اللغة العربية ، فقد انتشر التصحيف والتحريف فى أيامه ، لأن الكتابة العربية لم تكن ذات نقط تميز بين الحروف المتشابهة فى الرسم كالباء والته والشاء ، وكالراء والزأى ، وكالحاء والجيم والحاء ، فوهم الناس وخلطوا بين الحروف ، ونعوذ بالله من ذلك الذى رواه الحسن بن عبد الله العسكرى فى كتابه « التصحيف والتحريف » حين روى أن بعض القسارئين قرأ قوله تعالى « وجعل السقاية فى رجل أخيه » نطق به « جعل السقاية فى رجل أخيه » وقرأ قوله تعالى : ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هكذا « ذلك الكتاب لا زيت فيه » وقرأ « وما علمتم من الجوارح مكلين » « وما علمتم من الخوارج مكلين » نعوذ بالله من هذا .

لقد فشا التصحيف والتحريف فى زمن الحجاج ، فنشط الحجاج لعلاج الأمر ، وكان النقط هو هذا العلاج ، وهو أثر من آثار الحجاج فى لغتنا الشريفة . ويقال ان الذى وضعه له هو نصر بن عاصم ، الذى وضع النقط

أفراداً وأزواجاً وخالف بين أباكنها ، فنقطة ونقطتان وثلاث
وفوق الحرف وتحتة •

ونصر بن عاصم. هذا كما قال أبو بكر الزبيدي هو
أحد الذين شاركوا أبا الأسود الدؤلي في وضع قواعد
النحو العربي وتأصيل أصوله •

ومن أوليات الحجاج ، انه أول من ضرب درهما
عليه « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » وله قصة من
قصص المروعة والانسانية والشهامة العربية شبيهة بقصة
المتنصم مع المرأة المسلمة التي احتازها الروم في عمورية ،
فقد ذكروا أن امرأة مسلمة سبيت في الهند ، ورووا
للحجاج انها صاحت وهي تؤخذ للسبي واحجاجاه ، فثارت
حمية الحجاج وقال. ليك ليك ، وأنفق سبعة ملايين من
الدراهم لانقاذ هذه المرأة المستصرخة •

والحجاج نهى لفوضى تاريخية كبرى ، في كتب
تواريخنا ، فبعضها يجرده من كل فضل ، وينسب اليه
كل سوء ، وبعضها يمتدحه ويشيد به ، ويضع على رأس
ما يكتبه قول ليلي الأخيلية في مدحه :

أحجاج لا يفلل سلاحك انها ال
منايا بكف الله حيث تراها
إذا وطىء الحجاج أرضا مريضة
تبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها
غلام إذا هز القناة سقاها
أحجاج لا تعط العصاة مناهم
ولا الله يعطى للعصاة مناهم
نقول ذلك لمناسبة ما ذكروه من أن المرأة المتسمية التي
سميها عمر بن الخطاب ليلة وهي تتشد في خدرها :
هل من سبيل الى خمر فأشربها
أم من سبيل الى نصر بن حجاج
هي - كما قالوا - أم الحجاج .

وبقية قصة نصر بن حجاج مع عمر بن الخطاب
مشهورة وخلاصتها ، ان عمر قال لما سمعها : لا أرى مسمى
في المدينة رجلا تهتف به العواتق في خدورهن ، على
بنصر بن حجاج ، فأتى به فاذا هو أحسن الناس وجها

وأحسنهم شعرا فقال عمر رضى الله عنه : عزيمة من أمير المؤمنين لتأخذن من شعرك ، فأخذ من شعره ، فخرجت له وجنتان كأنهما شقتا قمر فقال عمر اعتم أى البس عمامة ، ففعل ففتن الناس بعينيه فقال عمر رضى الله عنه لا تساكنتى فى بلدة أنا فيها ، فقال نصر : يا أمير المؤمنين ما ذنبى قال هو ما أقول لك وسيره الى البصرة •

فبعض كتب التاريخ تذكر أن التمنية هى أم الحجاج ، وبعض يزعم انها جدته أم أبيه وقد علق الشاعر المصرى المعاصر محمد حافظ ابراهيم على هذه القصة فى مطولته المسماة بالعمرية فقال :

جنى الجمال على نصر ففربه
عن المدينة تبكيه ويكيها
وكم رمت قسما الحسن صاحبها
وأثعبت قصبات السبق حاويها
وزهرة الروض لولا حسن رونقها
لما استطالت عليها كف جانيها
كانت له له فينانة عجب
على جين خليك ان يجليها

وكان أنى مشى مالت عقائلها
 شوقا إليه وكاد الحسن يسيبها
 هتفن تحت الليالى باسمه شغفا
 وللحسان تمن فى لياليها
 جززت لمته طالما أتيت به
 ففاق عاطلها فى الحسن حالها
 فصحت فيه تحول عن مدينتهم
 فانها فتنة أخشى تماديها
 وفتنة الحسن ان هبت نوافحها
 كفتة الحرب ان هبت سوافيها

وفى عبقرية عمر للعقاد ، تناول هذه الحادثة من حياة
 عمر رضى الله عنه ، فأقرها ، وعللها بأن الخطر العام الذى
 يخشى اندلاعه يجوز أن يدرأ بتقييد حرية بعض المواطنين
 على مثال ما تصنعه الحكومات الحديثة من اعلان الأحكام
 العرفية رعاية لمصلحة قومية أو وطنية أكبر ، يصغر أمامها
 هذا التقييد لحرية بعض الناس . ولم يذكر العقاد شيئا عن
 هذه التمنية ولو أنه ثبت له أنها أم الحجاج لكان قد أفاض
 فى ذلك ولو بعض الافاضة .

والحجاج خطيب من خطباء العرب المفوهين ، ومن
ملكوا ناصية البلاغة وقد قالوا ان بعض خطبه في العراق
هي التي أقرت الأمن في ربوعه لا سيفه ، بل قالوا ان الحجاج
كان ينال بكلامه ما لا ينال بحد حسامه ، وتمتاز خطبه
بشدة الأسر وقوة العبارات حتى لكأنه ملاكم في حلقة
يلوح بكلتا يديه ، ومن أشهر خطبه ، خطبته في الكوفة
أول ولايته على العراق حيث قل فيها :

أنا ابن جلا وطلاع الثيايا
متى أضع العمامة تعرفوني

أما والله اني لأحتمل الشر بحمله وأحذوه بنعله
وأجزيه بمثله وانى لأرى رموسا قد أينعت وحن قطفها
وانى لصاحبها وكأني أنظر الى الدماء تترقرق بين العمام
واللحي :

قد شمريت عن ساقها فشدوا
وجدت الحرب بكم فجدوا
والقوس فيها وترعرد
مثل ذراع البكر أو أشد
لا بد مما ليس منه بد

هذا أوان الشد فاشتدى زيم
قد لفها الليل بسواق حطم
ليس براعى ابل ولا غنم
ولا بجزار على ظهر وضم

قد لفها الليل بمصلي
أروع خراج من الدوى
مهاجر ليس بأعرابي

انى والله يا أهل العراق لا يغمز جانبى كغماز التين
ولا يقعق لى بالشتان ولقد فررت عن ذكاء وفشتت عن
تجربة وأن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد نثر كنانته بين
يديه فمجم عيدانها فوجدنى أمرها عودا وأصلبها مكسرا
فرماكم بى ، أما والله لألحونكم لحو العصا ولأقرعنكم قرع
المروة ولأحزمنكم حزم السلعة ولأضربنكم ضرب غرائب
الابل •

وكان الحجاج ، صاحب ذوق فى الشعر ، يأوى اليه
الشعراء من أمثال الفرزدق وجريير والأخطل فيستشدهم
ويشبههم ويقترح عليهم الموضوعات الشعرية ، ويشاركهم فى

الاجازة والنقد فلا عجب أن تعلىء بذكره كتب الشعر والأدب والنقد كما امتلأت بذكره كتب الوقائع والحروب والسياسة والرياضة . ونستطيع أن نستدل على قوة تأثير القول البليغ فيه من تلك الأحاديث التي يروونها عنه وعن بعض ذوى الفصاحة ممن وقعوا فى يديه وأراد أن يقتلهم فأطلقوا كلاما بليغا هداً نائرة الحجاج عليهم فأطلق كلمة العفو مرغماً ، أو راضياً كالمرغم ومن ذلك ما ذكروا من أمر الشعبي معه حين دخل مع أسرى تمرت ابن الأشعث بعد موقعة دير الجماجم المشهورة ، وقال : أصلح الله الأمير نبا المنزل ، وأجذب بنا الجنباب ومستحلنا الخوف ، واكتحلنا السهر ، وضاق الملك ، وخبطتنا فتنة لم نكن فيها برة أتقياء ولا فجرة أقوياء ، فيقول الحجاج وهو مأخوذ بهذه البلاغة : صدقت خلوا سبيل الشيخ وكذلك ما رووا من أمر عمران بن حطان معه حين أمر الحجاج بقتله فقال للسياف اضرب عنق ابن الفاجرة فقال عمران : لبس ما أدبك أهلك يا حجاج كيف أمنت أن أجيبك بمثل ما لقيتني به ؟ أفبعد الموت منزلة أصانك عليها ؟ فحجل الحجاج أو قل أثرت فيه بلاغة الرجل وشجاعته فقال خلوا

عنه فطوقت عنق الرجل الخارجى هذه المكرمة من الحجاج
وجاءه أصحابه بعدها يؤلبونه لحرب الحجاج فقال : هيهات ،
ثم هيهات ، لقد غل يدا مطلقها وأسر رقبة معتقها ، فذهبت
على وجه الزمان مثلاه والى جانب ذلك كن الحجاج يحب
الفكاهة ويستطيب الفكاهة الرائقة حتى ولو أصابه رشاشها
ذكروا أنه خرج بلا حرس متكرا يتفقد أحوال الناس
فصادف رجلا فى طريقه فسأله عن الحجاج فأطلق الرجل
لسانه فى الحجاج سبا وشتما وتجريحا وحين انتهى الرجل
قال له الحجاج : أما أنا فالحجاج بن يوسف وأما أنت فمن؟
قال الرجل : أنا مجنون بنى عجل يصينى الصرع مرتين
فى الشهر فلا أدري ما أقول فيهما ، فضحك الحجاج حتى
بدت نواجذه وأمر للرجل بجائزة •

الحمار

ذكر الحمار في القرآن الكريم عدة مرات ، أفلا يحق لنا بعد هذا أن نجعله موضوع حديث من أحاديثنا ؟ قال الله تعالى : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة » وقال جل شأنه « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » وظفر الحمار بنصيب كبير من اهتمام معاجم اللغة ، وسارت أبيات من الشعر أمثالا عن الحمار :

إذا ذهب الحمار بأم عمرو
فلا رجعت ، ولا رجع الحمار

ويقول النابغة :

ولا يقيم على ضيم يراد به
الا الأذلان ، غير الحى والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته
وذا - يشج فلا يرثى له أحد

وهم يضربون المثل بالحمار في نكر الصوت التزاما
بقوله تعالى : « ان أنكر الأصوات لصوت الحمير » والعر
الحمار ، والعر القافلة التي تحمل الميرة • حميرا كانت أو
بفالا أو ابلا ، حدثني الدكتور الأستاذ أحمد عمار العميد
السابق لكلية الطب بجامعة عين شمس ، وعضو مجمع
اللغة العربية ، انه أراد يوما أن يبحث عن القرابة في المعنى
بين العير (بفتح العين) أي الحمار والعر (بكسر العين)
أي القافلة ، فلم يصل الى شيء ، حتى سأل الأستاذ العقاد
في ذلك في إحدى جلسات المجمع اللغوي ذات يوم ، فقال
العقاد ان العير في أصلها كانت قافلة الحمير ، وكان أكثر
استعمالها لذلك في الأراضى الوعرة باليمن ، ثم ترك
التخصص في الاستعمال من الحمير الى الجمال والخيول
والبغال والحمير جميعا ، ولست أدري لم يهزأ الناس
بالحمار هذا الهزء ، وفيه كما يقول الديميرى في حياة
الحيوان - خصلتان جديرتان بهما أن تكونا ممدوحتين ،
احدهما الصبر على المكروه ، وهو الذى بالغ التابفة في

بيتيه الشهيرين فسماه ذلاً وخنوعاً ، وتفرع من
 هذه الخصلة بقاؤه في مكانه حيث تركه . رووا عن
 الجاحظ انه قال : قال ثمامة بن أشرس : دخلت على صديق
 لي أعوده وتركت حماري على الباب ولم يكن معي غلام
 يحفظه فلما خرجت اذا فوقه صبي يحفظه فقلت أركبت
 حماري بغير اذنني فقال الغلام : خفت أن يذهب فحفظته
 لك فقال ثمامة : لو ذهب لكان أعجب الى من بقائه ! ومن
 بابة الصبر لقب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين
 «مروان الحمار» وكانت مدحا لا هجاء والخصلة الثانية انه
 يذهب الى المكان مرة ، فلا يضل عنه بعد ذلك أبداً ، زارني
 أحد الأصدقاء في منزل كنت سكنته حديثاً مرة ، فلما أراد
 أن يزورني للمرة الثانية ضل الطريق وكان المنزل في
 بعض الضواحي التي تتشابه طرقاتها وأبنتها فأخذت ألومه
 وأقول له : لقد زرت هذا البيت من قبل فكيف تضل عنه
 أثنت حمار ، فبادرني قائلاً ، انني بالتأكيد لست حماراً اذ
 لو كنت حماراً لعرفت طريق البيت من زورة واحدة ،
 ولما ضللت في المرة الثانية .

ومن أشهر الحمير ، حمار عزيز الذي ورد ذكره

فى القرآن الكرىم فى سورة البقرة اذ يقول الله تعالى
« أو كالأذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ، قال
أنى يحيى هذه الله بعد موتها ، فأما الله مائة عام ثم بعشه
قال كم لبثت ؟ قال لبثت يوما أو بعض يوم ، قال بل لبثت
مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر الى
حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها
ثم تكسوها لحما ، فلما تبين له ، قال أعلم ان الله على كل
شء قدير ، »

وقد اختلف أصحاب التفاسير ، هل مات الحمار مائة
عام كما مات صاحبه ، أم أنه بقى حيا رغم موت صاحبه
هذه المدة وعدم وجود من يعتنى بشأنه •

ومن أشهر الحمير كذلك حمار الحاكم بأمر الله
الفاطمى ذلك الحمار الأشهب الذى كان يدعى بقمر ، وقد
روى ابن خلكان أن الحاكم قد خرج فى نزعة على ظهر
هذا الحمار ليلة الاثنين السابع عشر من شوال سنة احدى
عشرة وأربعمائة هجرية وتوجه الى حلوان ، فضل الطريق
فى الصحراء الشاسعة المترامية هناك حول حلوان ، وخرج
الناس يلتمسونه فلم يعثروا له على أثر خلا انهم وجدوا

حماره الأشهب فى قرن من فرون الجبل وقد مات وأكلت
سباع الوحش والطير لحمه وبقي هيكله العظمى ، وفى
صحراء حلوان بل ربما كان فى المكان نفسه ضل أحد
نظار المدارس الثانوية من هواة الرحلات منذ عدة سنين
وأكلت سباع الطير والوحش كل شئ فيه حتى عظامه
وعرف بمظلة كانت فى يده وكان ذلك منذ عدة سنوات
وتذكر الناس يوما قصة غياب الحاكم بأمر الله الفاطمى •
وعقب غياب الحاكم زعم بعض المتغالين المتهوسين من
محبيه انه لا يزال حيا ، وانه سيظهر يوما ويحلفون بقيته
ويتنظرون عودته •

وكان للنبي صلى الله عليه وسلم حماران أحدهما
اسمه عفير وقد أهداه له المقوقس وحمار آخر اسمه يعفور
أهداه اليه فروة بن عمر الجذامى •

ويظهر أن الحمار لم يكن محتقرا عند آبائنا العرب
الأقدمين كما هو محتقر عندنا اليوم ألم نسمع باسم صاحب
لىلى الأخيلية توبة بن الحمير ، فهذا أبوه حمير : حمار
مصغر ثم ألم تسمع بالنمر بن ثولب ، فالثولب هو الجحش
الذى استكمل حولا •

ثم ألم تسمع كذلك يحيى بن أخطب النضرى الذى
كان ينعت بسيد الحاضر والبادى والذى آذى المسلمين
فأسروه يوم قريظة وقتلوه ، والأخطب من الحمير الذى فيه
خضرة أوله خط أسود على ظهره ، ثم ألم تسمع بزینب
بنت جحش ؟ وهى من هى بين أمهات المؤمنين رضى الله
عنهن •

وأكل لحم الحمير الأهلية محرم عند أكثر أهل العلم
لما ورد عن جابر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه
وسلم « نهى عن لحوم الحمر الأهلية واذن فى لحوم الخيل » •
ورغم ما فى صوت الحمار من نكر وفظاعة وازعاج
فانه يضره ، أى ينهق عشرة أصوات فى طلق واحد ،
قال الشاعر :

لعمري لئن عشت من خيفة الردى
نهياق حمار ، انه لجزوع
ومن الأمثال : فلان حمار حاجات قومه ، وهو
حمار شغل •

وحول الحمار قامت خرافات كثيرة ، منها انه اذا ركب

المسوع بالعرب حمارا وجعل وجهه إلى ذنبه صار الوجل
إلى الحمار وبرىء الراكب •

والحمار الوحش اسمه الفرا ، وفي الأمثال السائرة
« كل الصيد في جوف الفرا » ، ونقل ديوان الشاعر
المشهور ابن عنين الذي كان يعيش في القرنين السادس
والسابع الهجري بالشام والعراق فنقرأ له قصيدة لطيفة جدا
في رثاء حمار له يصير محقق ديوانه على أن يقول انه مات
ولم يقل انه نفق • والطريف أن قصيدة ابن عنين في رثاء
حماره وردت في جميع نسخ الديوان المخطوطة في باب
الرثاء ، لكن المرحوم خليل مردم بك محقق الديوان وناشره
رأى أن يضعها في باب الدعابة والتهكم والسخرية يقول
ابن عنين :-

ليل بأول يوم الحشر متصل
ومقلة أبدا انسانها خضل
وهل ألام وقد لاقيت داهية
ينهد لو حملتها بمضها الجبل

نوى المصك الذى قد كنت آمله
 عونا وخيب فيه ذلك الأمل
 لا تبعدن تربة ضمت شمائله
 ولا عدا جانيها العارض الهطل
 لقد حوت غير مكسال ولا رعرش
 ان قيد القود من دون السرى الكسل
 قد كان ان سابقته الريح غادرها
 كأن أخصها بالشوك يشتعل
 لا عاجزا عند حمل الثقلات ولا
 (يمشى الهوينى كما يمشى الوجى الوحل)
 مكمل الخلق رجب الصدر منتفخ الـ
 جنين لا ضامر طاو ولا سفل
 يطوى على ظمأ خمسا أضالعه
 فى بيضة الصيف والرمضاء تشتعل

ويقطع المقفرات الموحشات اذا
عن قطعها كلت المهرية البزل
ففى الاباطح هيق راعه قنص
وفى الجبال المنيفات الذرا وعل
يرجع النهق مقرونا ويطربنى
لحنا كما يطرب المزموم والرمل
لو كان يفدى بمال ما ضنت به
ولم تصن دونه خيل ولا خول
لكنها خطة لا بد يلفها
هذا الورى ، كل مخلوق له أجل

والقصيدة طريفة جدا ، وقد قال انه غير ضامر لأن
الضمور صفة لا تستحب الا فى الخيل وقال انه سريع
العدو جدا كأنه الهيق ، والهيق ذكر النعام ويضرب به المثل
فى السرعة وقال ان نهيقه المقرون أى المكرر المتواصل
يطربه كما يطربه المزموم والرمل وهما لحنان من ألحان
الموسيقى •

والأثنان أثنى الحمار، وهى أقل شراسه وأكثر هدوءاً
منه ويظهر أن ركوبها كان يدل فى القديم على التواضع
فقد سمعنا من قال : « من لبس الصوف وحلب الشاة
وركب الأثنان فليس فى جوفه من الكبر شيء ! » ويضربون
المثل بالرجل يهون بعد العز فيقولون كان حماراً فاستأثن
ومن الحرافات الشائعة بين العامة من أهل مصر أن الحمار
إذا دخلت فى آذانها المياه فى شهر مسرى من الشهور
القبطية نفقت لساعتها •

وفى الأدب الحديث شرقه وغربه نقرأ «بلايرو وأنا»
للشاعر جوان رامون خمينيز صاحب جائزة نوبل للأدب
سنة ألف وتسعمائة وست وخمسين ، وبلايرو كما يقول
خيمينيز حمار صغير وافر الشعر ناعم اللمس يخيل اليك
من فرط نعومته انه مصنوع من القطن بفسير عظام لولا
مرآتان لامعتان من الكهرباء السوداء كأنهما جعلان بلوريان
هما عيناه ونقرأ كذلك حمار الحكيم لتوفيق الحكيم ، الذى
اتهمه كثير من النقاد بسرقة حمار خمينيز واشتدت الحملة
الصحفية عليه سنة ألف وتسعمائة وثمان وخمسين بعد أن
وصل حديث بلايرو وصاحبه الى بلادنا ويذكر الدكتور

لويس عوض فى احدى مقالاته بصحيفة الأهرام أن الزعيم
الراحل جمال عبد الناصر حسم الأمر بأن منح توفيق
الحكيم قلادة الجمهورية وهى من أرفع أوسمة الدولة
ولقد كان لهذه الاشارة يومئذ مغزى واضح وعميق فقد
كانت بمثابة اعلان رأى الدولة فى توفيق الحكيم أو بمثابة
فصل فى الخطاب •

أبيات الشعراء

تعالوا نسمر الليلة مع أبيات الشعراء ، لا نعى تلك
التي ينظمونها ويترنمون بها فترنم من بعدهم بها الأجيال ،
والتي يصنعون بها ما صنعه الشاعر القائل : -

وأخذ اللفظ فضة فاذا

ما صنعه قيل انه ذهب

ولكننا نعى مساكنهم وهى التى يتلقون وحى الشعر
فى هدوئها وتحت سقوفها ، وبیت الشاعر يجب أن يكون
فى البيوت عجيبا ، فان صاحبه عجيب بين الناس ولهذا فمن
أجمل السمر أن تكون هذه الأبيات موضوعا فيه .

ونبدأ ببیت عبد الحميد الديب الشاعر البائس الذى
مات منذ نحو ربع قرن ولم يكن له فى الأغلب الأعم من
أيام حياته بيت يسكنه ، ولكن الدهر جاد عليه يوما بأن
سكن غرفة متهدمة فى بيت قديم ، ورغم ضالة أجرتها

فان عبد الحميد عجز عن دفعها المرة تلو المرة، وكان صاحب
البيت يجيء لمطالبته فاذا فتح له الديب بابها دعر الرجل
لساكن لا يملك أناثا يضمن به أجرة السكن • يقول
الديب فى ذلك :

أفى حجرتى يارب أم أنا فى لحدى
ألا شد ما ألقى من الزمن الوغد

وهل أنا حى أم قضيت وهذه
أهابة اسرافيل تبغى وحدى

لكم كنت أرجو حجرة فأصبثها
بناء قديم العهد أضيق من لحدى

ترانى بها كل الاثاث فمعطى
فراش لنومى أو وقاء من البرد

وأما وساداتى بها فجرائد
تجدد اذ تبلى على حجر صلد

فأهدأ أنفاسى يكاد يهدم
وأيسر لس فى بنائتها يردى

تساكننى فيها الأفصاى جريئة
وفى جوها الامراض تفتك أو تعدى
أرى النمل يخشى الناس الا بأرضها
فأرجله أمضى من الصارم الهندى
تحملت فيها صبر أيوب فى الضنى
وذقت هزال الجوع أكثر من غاندى
جوارك يا ربى لىلى رحمة
فخذنى الى النيران لا جنة انخلد
ويصف صاحب المنزل يطالبه بالأجرة فيقول :
يمر على سكتائى فى ذيل بيته
مرور عيون الموسرين على الفلس
تكبر فالألفاظ منه اشارة
كأن عباد الله طرا من الخرس
يطالبنى بالأجر فى غيظ دائن
تصيده المحتال بالثمن الوكس

وقال يدارى ظلمه : أى ضامن
 لسكنى تعرت عن سرير رعن كرسى
 أراك بها كل الأنثا ولا أرى
 سوى قلم تاو على الأرض أو طرس
 فقلت له هذى جدودى كما ترى
 فما مسكنى فى البيت بل أنا فى رمسى
 وقلت معاذ الدين ما كنت مرة
 غريما ولا أذلت يومى ولا أمسى
 وأسعته صوت الدراهم فأنحنى
 يقدم أعذار اليهود من الوكس
 وأخضع فقرى كبره وثناءه
 وأى غنى للمرء غير غنى النفس
 إذا كانت السكنى بأجر مذلة
 فما أرحب المجان فى غرف الحبس
 فأنى أرى فيها الطعام ولا أرى
 غريما يلاقينى بعارضة النحس

وقريب من هذا قصيدة للصافي النجفي الشاعر
العراقي المعروف نشرها في ديوانه الأمواج يقول فيها :

أكافح البرد في سراج
يكاد من ضعفه يموت

في غرفة ملؤها ثقبوب
ان شئت قل ملؤها بيوت

يسكن فيها بلا كراه
فأر وبق وعنكبوت

للفأر من مأكلي غذاء
والق جسمي لديه قوت

واعتزل العنكبوت أمرى
وفي بقاه معي رضى

فهو، بمعنى مثل فيلسوف
معتزل دأبه السسكوت

أغرفة للنمام هذى
أم هي منفى به نفيت

جمدت من بردها ولكن
فى الصيف من حرها شويت
أمشى بها خائفا لأننى
أخشى انخسافا اذا مشيت

وقد أحب الشاعر العراقي الكبير حزم سعيد أحمد
أن يمازحه تعقيا على قصيدته هذه فقال له :

يا أيها المراهب الشتيت
نصيحة خلها تفوت
أرق من كل ما تغنى
الفقر والدمع والسكوت

وندع بيت ابن الرومى الذى غصبت جزءا منه امرأة
أعياء أمرها فشكاها وسجل ذلك فى احدى روائعه ،
وغصب جزءا منه تاجر يسمى ابن ابى كامل واستعلى عليه
بغناه وشكا ابن الرومى أيضا شكاة مرة ، ندع ذلك الى
بيت العقاد الذى كتب فيه كتابا ثريا من روائع كتبه وكنت
منذ مدة قد ذهبت الى بيت العقاد بصحبة الأستاذين أحمد

البشر الرومى ومحمد ملا حسين وبيننا نصد السمل
الرخامى اذا بالأستاذ البشر يقول : لقد صعد العقاد على
درجات هذا السلم ثلاثا ثلاثا ثم اثنتين اثنتين ثم واحدة
واحدة يشير بهذه العبارة الى فقرة من كتاب العقاد كنى بها
عن أنه قضى فيه فترة الشباب والكهولة والشيخوخة فهو فى
زمن الشباب كان يصعد سلالمه ثلاثا ثلاثا وهو فى الكهولة
كان يصعد اثنتين اثنتين وفى الشيخوخة كان يصعد
واحدة واحدة !

وكتب العقاد فى ديوانه عابر سبيل قصيدة رائعة
تحت عنوان بيت يتكلم قدم لها بمقدمة ثرية قال فيها :

كل بيت من البيوت التى تعاقب عليها السكان لو
ألقيت عليه طلسم الحيال وأمرته بالكلام لانطلقت منه
أسرار وأشباح يزدهم بها فضاء المكان ولسمعت عجبا
لا تسمع الأذان أعجب منه وليس الذى يتحدث به البيت
فى القصيدة التالية الا قليلا من كثير .

جميع الناس سكانى

فهل تدرون عنوانى

وما للناس من سر
عدا آذان حيطاني

حديثي عجب فيه
خفايا الأوس والجان

فكم قضيت أيامي
بأفراح وأحزان

وكم آويت من بر
وكم آويت من جان

فإن أرضاكم سرى
فهاكم بعض اعلائي

وكان أول السكان زوجين جديدين يظهران الوفاء
ويطنان الحيانة يقول العقاد :

وراحا - هكذا يحكو
ن - في روح وريحان

وما أبصرت من هذا
ولا من تلك في آن

سوى خيانة خرقاً
تفري عرض خوان

إذا ما ضحكاً يوماً
على غش وبهتان

حصدت اليد والأطـ
لال فى غيظى وكنمانى

وأشفقت من النـ
مة أن تهتز أركانى

وكان الساكن الثانى بخيلاً يخزن المال ويستعيد
نفسه لجمعه :

وجاء الساكن الثانى
وبش الساكن الثانى

يراه الناس ذا مال
وأقراس وغيطان

وقد شوهنى بخلا
وأعرانى وأعيانى

وقد صبرني سجا
ومنه كان سجاني

فلما طال بي عهدا
ولم أسعد بهجران

وددت لو أن لي في
كل جحر ألف نعبان

بديلا منه ارضاه
وأحبوه بفقران

إلى أن آده أجرة
ولم يظفر بنقصان

فأخلاني ولن أنـ
سرى سروري يوم أخلاني

وكان الثالث ضعيفا بين الناس يستر ضعفه بالطفیان
والكبر :

إذا ما لقي الناس
بكبر منه طنان

فما أصغر ما ألقه .

بهاء منه بين جدرانى

وجاء الساكن العالم الأديب فملاً البيت كتباً وصحفا
وحرمة السهرات والندوات .

ومالى مطبخ أو مخد

ع أو بهو ضيفان

ولا زاوية إلا وفي

ها الكتب تلقانى

أبى للنفس دعوها

ولم يسمع الجنان

فلا سهرة أحباب

ولا جلسة ندمان

فما أجهله بالحق

ذاك العالم الغانى

أين الناس يحتا

ج الى علم وتيان

وهم عميان ظلماء
سروا في اثر عميان
كثير لك يا انس
ان في دنياك عيان

يتحدث الييت بعد ذلك فيقول ان شر من آواه ذلك
الذي يخون وطنه ويبيع ذمته ولم يحمد الا سكنى الفنان
الذي نقشه وزخرفه وكساه الحسن :

ولم أحمد من الضيفا
ن ضيفا مثل فنان
تولاني بابداع
من الفن واتقان
وغطى كل جدراني
بمنصور ومزدان

وأوحى الحسن واستوحا
من جنات رضوان
فجينا حسن مكسو
وجينا حسن عريان

بريشا فى سماء الفن
من عيث وأدران
وفنانا على الحالين
لكن أى فنان
كما تفتك الزهرة فى
فى أعطاف أغصان
ثم يتفلسف البيت الذى عرف الناس جميعا فلم يعرف
أهم أعداء أم هم أقران :

فلم أعرف أعداء
هم أم جنح أقران
إذا ما اختلفوا فى سيمة
تبدو وشغلان
فهم فى الموت أشباه
وفى سقم وأشجان
مساكين فلا تحفل
من الناس بأمسان

ولا تحسد قبي منهم
علي بأس وامكان

فأعلاهم وأدناهم
أمام الغيب صنوان

ثم يختم هذه القصيدة الفلسفية بتلك الأبيات :

نزول المنزل الخالي
ألا تعرف عنواني ؟

إذا ما طفت حويله
فوق أنك تلقاني

فما من منزل الا
فيه بعض ألواني

الكلب

إذا كنا قد خصصنا حديثا للحمار ، فائنا
سنجعل هذا الحديث عن الكلب ، والكلب أقرب الى الناس
من الحمار فان كثيرا من الناس يربون الكلاب ويهتمون
بها ، وبعض الناس يتخذون للكلاب من يقوم بخدمتها
والسهر على طعامها وشرابها من بنى آدم وقد ورد ذكر
الكلب في القرآن العظيم في سورة الأعراف قال الله تعالى:
« وائل عليهم نبال الذي آتينا آياتنا فامسك منها
فأتبعه الشيطان فكان من الفاوين ولو شئنا لرفسناه بها ولكنه
أخذ الى الأرض واتبع هواه ، فمثل كمثل الكلب ان
تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين
كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » .
وورد في قصة أصحاب الكهف أربع مرات مرة عند
ذكر قيامه على باب الكهف وثلاث مرات عند ذكر عدد
أصحاب الكهف .

واشتق القرآن الكريم من اسم الكلب فعلا قال تعالى : فى سورة المائدة « يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه » •

والكلب حيوان أليف وقد يتوحش ويضرب ويصيه داء يخيف الناس منه وهو يسمى الكلب مشتق أيضا من اسم الكلب •

ومن أشهر الكلاب قطمير كلب أهل الكهف الذى بسط ذراعيه بوسيد الكهف ، وبراقش تلك التى جنت على أهلها وعلى نفسها حين نبحت ساعة الغارة فدلّت المغيرين عليهم فأعملوا فيهم السيوف والرماح فضرب بها المثل ف قيل على نفسها جنت براقش •

وكلاب اسم يرد فى نسب النبی صلى الله عليه وسلم ، قال بعض العلماء انه جمع كلب وذلك واضح ، وقال بعضهم انه مصدر كالب يكالب كلابا ومكالبة أى دافع ونافع وجاهد وقاتل واسم الكلب فى أصول اللغة يقع على كل سبع عقور وغلب على هذا التابع •

وفى ديوان ديك الجن الحمصى من تحقيق الأديبين
العالمين العراقيين أحمد مطلوب وعبد الله الجبورى قصيدة
يفتخر فيها بقييلته كلب ويقول فى مطلعها :

كلب قبلى وكلب خير من ولدت
حواء من عرب غر ومن عجم

وقد يسمى الأسد كلبا ، واهتم الناس بالكلاب فى كل
العصور واتخذوهم للزينة أو للحراسة أو للاستئناس
وما زال للكلاب فى بعض أقسام كليات الشرطة مكان
وعليها قيم مدرب تحبه ويحبها ، وقد استغل الناس فى
الكلاب قوة حاسة الشم فاتخذوها للكشف عن المجرمين
تشم مكان الجريمة وآثار المجرمين ثم تجرى سعيها اليه
فتمسك به ويحاول هو التخلص منها فلا يستطيع وفى كلب
من كلاب الشرطة يقول محمود غنيم :

كلب يدل على الجناه
تمشى العدالة فى خطاه

ان قال ارهفت النيا
به سمعها وصنى القضاء

لم يعي أهل البحث سر
غامض إلا جلاء

يستخرج السر الدفين
كأنه بعض الحواء

الى أن يقول :

قالوا . أتطري الكلب قلت
لهم ومن أطري سواء

يرعى الوداد وما رأ
يت من الأنام فتى رعاه

سألوا الكلاب الحق اذ
وجدوه بين الناس تاه

وذكر الشئغر الجزائر الكلاب في شعره وقد لاه
اللائمون على ترك الشعر واتخاذ صنعة الجزارة « أى ذبيع
الحيوان وبيع لحمه » حرفة له فقال :

كيف لا أعشق الجزارة ما عشت
ت وأقلى الفنون والآداب

فبها صارت الكلاب ترجيني
وبالشعر كنت أرجو الكلابا
وأراد بالكلاب الأولى هذا الصنف من الحيوان وبالثانية
البخلاء من الناس الذين كان يمدحهم بقصائده فلا يجزونه
عليها الا الحرمان والرد •

وأراد ابن الرومي أن يهجو بعض من أوقعهم القدر
في طريقه واسمه عمرو فعقد موازنة لطيفة بين عمرو هذا
وبين الكلب انتهى منها الى تفضيل الكلب على عمرو بعد
استعراض كل منهما •

وجبهك يا عمرو فيه طول
وفى وجوه الكلاب طول
والكلب واف. وفيك غدير
ففيك عن قدره سفول

وقد يحامى عن المواشى
وما تحامى وما تصول

وأنت من بيت قوم سوء
قصتهم قصة تطول

وجوهم للورى عظمات
لكن أقدامهم طبول

بيت كمضالك ليس فيه
معنى سوى أنه فضول

مستفعلن فاعلن فعول
مستفعلن فاعلن فعول

وقال ابن الرومى أيضا فى هجاء رجل اسمه خالد :

خسأت كلبا مر بى مرة
فقال مهلا يا أخا خالد

حسبكم خزيا بنى آدم
شركتكم اياه فى والد

وقد اشتد الغلو بأحد المؤلفين فألف كتابا اسمه « فضل
الكلاب على كثير ممن لبس الثياب » واسم هذا المؤلف :
محمد بن خلف بن المرزبان بن بسام وله الى جانب هذا
الكتاب تأليف ومنقولات عن الفارسية التى كان
يجيدها •

وقد عاش في القرنين الثالث والرابع الهجريين وقد
تحدث في كتابه هذا فقال : رأى رسول الله صلى الله عليه
وسلم رجلاً قتيلاً فقال صلى الله عليه وسلم ما شأنه ؟
قالوا انه وثب على غنم بنى زهرة فأخذ منها شاة فوثب عليه
كلب الماشية فقتله فقال صلى الله عليه وسلم : قتل نفسه
وأضاع دينه وعصى ربه وخان أخاه وكان الكلب خيراً منه
وينسب الى الشافعي رضى الله عنه في هذا المجال قوله :
ليت الكلاب لنا كانت مجاورة

وليتنا لا نرى ممن نرى أحداً
ان الكلاب لتهدأ في مراتبها
والناس ليس بهاد شرهم أبداً

والكلاب نجسة كلها لا فرق فيها بين صغير وكبير
بل ان الكلب اذا ولغ في الاناء فلا طهارة له الا أن يفضل
سبحاً احداً بالتراب •

والعرب تتمدح بجبن الكلب لأن جبن الكلب آية
كرم أصحابه ، يقول حسان بن ثابت رضى الله عنه : -
الله در عصاة نادمتهم
يوماً بجلق في الزمان الأول

أولاد جفنة حول قبر أبيهم
قبر ابن مارية الكريم المفضل

يفشون حتى ما تهر كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبل

بيض الوجوه كريمة أحسابهم
شم الأنوف من الطراز الأول

وفى صفة الكلب الوفى روى الدميرى فى حياة
الحيوان أن محمد بن حرب قال دخلت على العتابى يوما
فوجدته جالسا على حصير وبين يديه شراب فى اناء ،
وكلب رابض بالقضاء بحاله يشرب كأسا ويولفه أخرى
فقلت له : ما الذى أردت بما اخترت فقال : اسمع ، انه
يكف عني أذاه ويكفينى أذى من سواء ويشكر قليل
ويحفظ مبيتى ومقبلى وهو من الحيوان خليلي ، قال محمد
بن حرب فتمنيت والله أن أكون كلبا له لأحوز هذا
النعته منه .

وصوت الكلاب العواء والنباح والمهرير وشبه ابن
عنين به صوت أحد المغنين فى مقام الهجاء فقال :

وابن هلال اذا تنضح للـ
 نساء يعوى مشابه الكلب
 ويقول عبد الحميد الديب فى كلبه له ولأهله :
 ليت الأنام كلاب ان كلبتنا
 لا تزل لحفاظ الود عنوانا
 تحملت قسطها فى البؤس صابرة
 لم تشك جوعا ولم تستجد امسانا
 ومات كلب العقاد واسمه بيجو فحزن عليه حزنا
 شديدا وقال فيه قصيدة تعد من أروع قصائده يقول فيها :

حزنا على بيجو تفيض الدموع
 حزنا على بيجو تثور الضلوع
 حزنا عليه جهد ما أستطيع
 وان حزنا بعد هذا الولوع
 والله يا بيجو لحزن وجيع

حزنا عليه كلما لاح لى
 بالليل فى ناحية المنزل
 مسامرى حينما ومستقبلى

وسابقى حينما الى مدخل
كأنه يعلم وقت الرجوع

وكلما داريت احدى التحف
أخشى عليها من يديه التلف
ثم تنبهت وبى من أسف
ألا يصيب اليوم منها الهدف
ذلك خير من فؤاد صديق !

حزنا عليه كلما عزنى
صدق ذوى الألباب والالسن
وكلما فوجئت فى مأمنى
وكلما اطمأنت فى مسكنى
مستقنيا أو غائبا بالقنوع

وكلما نادينه ناسيا
بيجو • ولم أبصر به آتيا

مداعبها مبهجها صاغيا
قد أصبح البيت اذن خاويا
لا من صدى فيه ولا من سميع
وكان العقاد وبعض أصدقائه من الأدباء قد أقاموا
حفلة لمناسبة مضي أسبوع على ولادة كلبة أحد الأصدقاء
وكانت تسمى فلورة فقال العقاد يبارك للنفساء ويحيى
المولود :

أعلنى يا فلورة الأفراحا
واملئى الأرض والسماء بناحا
ما حبا الدهر بنت كلب بأغلى
من ذرارئك عنصرا ولقاحا
أبشرى دولة الكلاب بجرو
سوف ينفى عن جيله الأثر احا
ما تقضى الأسبوع الا تمشى
يذرع الدار جيئة ورواحا
حرك الدهر ذيله حين وافى
وعوى الكون بهجة وانشر احا

يلبس الطوق من فضيار ودر
ويحوك الخز الثمين وشاحا
وأراء يعيد سيرة قطمير
ر وقارا وفطنة وصلاجا

الشعر التائه

هذا لون من الأدب ، أو بالأحرى من حديث الأدب ،
طريف غاية الطرافة ، وهو عن اشتها ر أبيات أو قصائد
من الشعر ، وظفرها بين الأدياء والمتأدين بصيت عريض ؛
ثم لا تلبث حتى يتنازعها طائفة من الشعراء كل منهم يدعيها
لنفسه ، بل انه ليحلف على ذلك بالأيمان المغلظة ، وبذلك
صارت هذه الأبيات والقصائد تائهة فى ديوان الأدب ،
لا يعرف النقاد لها أبا ينسبونها اليه ، فيظنون أحيانا ويقطعون
بالرأى أحيانا أخرى •

وقد التمس صديقنا الشاعر المؤرخ الأديب محمد
عبد الفتى حسن العذر للأقدمين بما رآه عند المحدثين ، حين
نسبوا بعض أبيات شوقي الى حفنى ناصف ؛ ونسبوا بعض
أبيات حفنى ناصف الى اسماعيل صبرى مع أن مسافة
الزمن بيننا وبينهم لا تعدو عشرات السنين فما بالنا والمسافة

بيننا وبين الأقدمين مئآت أو آلاف من السنوات ... ان
الأقدمين ولا شك معذورون !

والشاعر العراقي حافظ جميل يؤكد في ديوانه
«نبض الوجدان» المطبوع في بغداد سنة ألف وتسعمائة
وسبع وخمسين أن القصيدة التي أولها : -
يا تين يا توت يا رمان يا عنب .
يا خير ما أجنّت الأغصان . والكتب

هي من نظمه وحده ، نظمها أيام كان طالبا في
الجامعة الأمريكية ببيروت ، لكن أخانا الأديب المترجم
المجاهد خيرى حماد يروى لنا أنها ليست له منفردا ، وإنما
شاركه في نظمها نفر من طلبة الجامعة في ذلك الحين ومنهم
الشاعر المرحوم ابراهيم طوقان •

وأشهر القصائد الحائرة في الأدب العربي قصيدتان
أحدهما القصيدة التي عرفها قراء الأدب باسم 'القصيدة
الدعدية' ، أو الدرة اليتيمة ، وقد ادعاها كثير من الشعراء
وللدعدية هذه قصة ، فهم يزعمون أن أميرة من أهل نجد ،
وقيل من أهل اليمن آلت على نفسها ألا تتزوج الا من
رجل يناظرها في البلاغة والفصاحة ويغلبها ، ويستعلى

بيانه على بيانها بالروعة والسحر ، وظلت على هذه الحال مدة من الزمن ، يتقدم للزواج بها الشاعر أو الخطيب ثم لا يلبث أن يولى أمام بلاغتها مهزوما ، فسمع بأمرها شاعر من البلغاء والشعجان وأراد أن يتقدم اليها وأعد نفسه للقائها بقصيدة اجتهد في حسن سبكها وجمال نظمها غاية الاجتهاد ، ثم مضى الى ديارها ونزل وهو في الطريق اليها ببعض الديار ، فرآه رجل وسأله عن قصده وعرف قصته وسمع قصيدته وكان هذا الرجل ممن سبق له التقدم لخطبة الأميرة ، فاحتال حتى أهلك الشاعر واستلب قصيدته وادعاه لنفسه وذهب الى الأميرة ، ولما سألته عن نفسه أجابها اجابات تخالف بعض ما ورد في قصيدته فصرخت قائلة : اقتلوا هذا الرجل ، فانه قاتل بعلى واشتهرت القصيدة بالدعديّة نسبة الى دعد اسم هذه الأميرة .

وقد ادعى القصيدة الدعديّة أربعون شاعرا حلفوا على انتحالها وتمازوا عليها فيما بينهم ، ومن أشهر من نسبت اليهم ذو الرمة غيلان ، والعكوك وأبو الشيص الخزاعي ويرى صديقنا عبد الله الجبوري أمين مكتبة الأوقاف العامة ببغداد انها الى أبي الشيص أرجح لشدة التشابه بينها وبين

كثير من شعره ، وان كان يؤكد أن أبياتا أضيفت اليها من
غير شعر أبي الشيص ، والقصيدة الدعدية طويلة جدا ،
لا نستطيع روايتها هنا ، لطولها من جهة والسبب آخر أنها
تدرجت في وصف محاسن جسد المرأة ، وانزلت الى
ما يجب أن يترفع عنه مقام كهذا المقام ، ومنها :

هل بالطلول لسائل رد
أو هل لها بتكلم عهد
لهفى على دعد وما خلقت
الا لطلوب بليتى دعد
بيضاء قد لبس الأديم بها
والحسن فهو جلد لها جلد
ويزين فوديهما اذا حسرت
ضافى القدائر فاحم جعد
فالوجه مثل الصبح منبليج
والشعر مثل الليل مسود
ضدان لما استجمعا حسنا
والضد يظهر حسنه الضد

وكأنها وسنى اذا نظرت
أو مدنف لما يفق بعد
بفتور عين ما بها رمد
وبها تداوى الأعين الرمد
وتريك عرينا يزينه
شم وخدا لونه الورد
وتجبل مسواك الاراك على
تغر كأن رغبه الشهد
ما شائها طول ولا قصر
فى خلقها فقوامها قصد
ان لم يكن وصل لديك لنا
يشفى الصابة فليكن وعد
ان تنهى فتنة وطنى
أو تنجدى ، ان الهوى نجد
ولقد علمت بأننى رجل
فى الصالحات أروح أو أغدو

سلم على الأدنى ومرحمة
وعلى الحوادث هادئ جلد
متجلبب ثوب العفاف وقد
غفل الرقيب وأمكن الورد
ومجانب فعل القبيح وقد
وصل الحبيب وساعد السعد

ومن مشهورات هذه القصيدة :
آلت امسح مقرفا أبدا
يبقى المديح ويذهب الرfd
هيهات يأبى ذاك لى سلف
خدموا ولم يخمد لهم مجد
والجد كدة والبنون هم
فزكا البنون وأنجب الجد
فلئن قفوت جميل فعلهم
بنميم فملى اتنى وغد

وأبو الشيص الذى رجحت اليه نسبة هذه القصيدة
يقول عنه صاحب الأغاني انه متوسط فى شعراء عصره غير

فيه الذكر ، لوقوعه بين مسلم بن الوليد وأشجع وأبى
نؤاس فحمل ، وقد عمى فى آخر حياته فرئى عينه بقصائد
جواد منها قوله :

يا نفس بكى بمدح هتن
وواكف كالجمان فى سنن

على دلى وقائدى ويدى
ونور وجهى وسائر البدن

أبكى عليها بها مخافة أن
تقرننى والظلام فى قرن

وثمة قصيدة كالقصيدة الدعدية فى مشربها واتجاهها
بل هى مثلها فى الروى فكلتاها على روى الدال ، وان
كانت هذه مضمومة وتلك مكسورة ، هذه القصيدة الأخرى
للنابغة الذبياني زياد بن معاوية ، الشاعر الجاهلى طائر
العصيت ، وأحد أصحاب المعلقات وقصيدته أيضا فى وصف
المرأة وذكر محاسن جسدها ، وقد انزلت مثلها الى مايجب
أن يترفع عنه مقام كهذا المقام ، وهى فى المتجردة زوجة
النعمان وأولها :-

أمن آل مية رائح أو مقعد
عجلان ذا زاد وغير مزود .

زعم البوارح ان رحلتنا غدا
وبذاك تنعاب الغراب الأسود .

لا مرجأ بغيد ولا أهلا به
ان كان تفريق الأعبة فى غد .

ومنها :

سقط النصف ولم ترد اسقاطه .
فتاوتله واتقنا باليد .

بمخضب رخص كأن بنانه
عم على أغصانه لم : يعقد .

وبفاحم رجل أثيث بنته
كالكرم مال على الدغام المسند .

نظرت اليك بحاجة لم تقضها
نظر المريض الى وجوه العود
والقصيدة الثانية الحائرة قصيدة قيلت فى أحد العلويين

ونظنه عليا زين العابدين رضي الله عنه ، يحين معنى الى الحج
 في عهد هشام بن عبد الملك اذ ذهب هشام بين جنده
 وخشمه يحج البيت ويطرف الناس فلم يستطع أن يبلغ
 الحجر الأسود لتراحم الحجيج ، وأنه تجالس على
 كرسيه ينتظر انفضاض الناس اذا بزى العابدين يقبل الى
 الحجر الأسود في وقاره وهيبته فيتحنى له الحجيج ويحفون
 به ، وهو يستلم الحجر مطمئنا غير معجل ثم يعود من حيث
 أتى ويشيعه الناس بالدعاء والاجلال .

ويتساءل بعض رجال حاشية هشام « من هذا الذي
 هابه الناس » ويرد هشام لا أعرفه ! فيتصدى للرد عليه
 أحد الشعراء ، أرجح الأقوال انه الفرزدق همام بن غالب
 قائلا :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
 والبيت يعرفه والحل والحرم
 هذا ابن خير عباد الله كلهم
 هذا التقى التقى الطاهر العلم
 هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله
 بجده أنبياء الله قد ختموا

فليس قولك من هذا بضائره
العرب تعرف من أنكرت والمعجم
إذا رآته قریش قال قائلها
الى مكارم هذا ينتهى السكرم

وعلى زين العابدين هو الذى نجا من مقتلة كربلاء
فامتد به عقب الحسين فى التاريخ وقد روى العقاد فى كتابه
« أبو الشهداء » حديثا جرى بينه وبين ابن زياد يدل على
شجاعته وقوة نفسه •

والشعر الحائر كثير ، ولعل سببه فى البيت والشطر
هو وقوع الحافر على الحافر كما يقولون ، فليس ما يمنع
من أن تقع جملة أو يقع معنى فى خاطر شاعرين يتفقان
أو يختلفان فى الزمان والمكان أما امكان ذلك بالنسبة
للقصيدة أو للمقطوعة أو حتى للبيتين فأمر نراه مستحيلا
وما هو الا الانتهاب والاختلاس •

واذا كان ثمة شاعر يذكر فى هذا المجال من بين
المنهوبين فانه ابن الرومى الذى ظلمه عصره أبشع الظلم

فماش فقيرا بائسا يلتمس العطاء فلا يناله بل انه ليلتمس
الثوب فلا يكاد يدركه :

جعلت فداك لم أسأل
ك هذا الثوب للكفن

سألكه لألبسه

وروحى بعد فى بدنى

هذا الشاعر المسكين نسب كثير من شعره الى غيره ؛
فمثلا هذان البيتان :

قصرت أخادعه وطال قذاله
فكأنه متربص أن يصفعا

وكانما صفعوه أول صفقة
وأحسن ثانية لها فتجمعا

وهما فى وصف الأحذب وقصته مع ابن الرومى
مشهورة متداولة - هذان البيتان نسباً الى شاعر مغمور يقال
له ابن الطباخ ، ومثلا هذه المقطوعة الرائعة له فى وصف
قوس النمام : -

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارقا
على الجو وكنا والحواسي على الأرض

يطرزاها قوس السحاب بأخضر
على أحمر في أصفر أثر مبيض

كأذيال خود أقبلت في غلائل
مصبغة والبعض أقصر من بعض

وهذه الأبيات الرائعة نسبها الثعالبي صاحب يتيمة
الدهر الى سيف الدولة بن حمدان - ونسبها مرة أخرى
في كتاب اليتيمة أيضا الى عضد الدولة وهذان اليتان :

أطال الله في بغداد هني
وقد يشقى المسافر أو يفوز

ظللت بها على كره مقيما
كمنين تعاقبه عجزوز

نسبهما ياقوت في معجم البلدان الى ابن المعتز * وهما
على التحقيق لابن الزومى *

ويشتهر الفرزدق في ديوان الأدب بأنه يشتهب لنفسه

أحسن ما يسمع من الشعر ويروى المرباني في الموشح
قصصاً كثيرة عن هذا الانتهاك الأدبي ، فالفرزدق ينتهب
من ذى الرمة قوله :

أحين أعاذت بى تميم نساءها
وجردت تجريد اليماني من الغمد

ومن الشمردل اليربوعي قوله :

وما بين من لم يعط سمعا وطاعة
وبين تميم غير حز الحلاقم

ومن ابن ميادة قوله :-

لو أن جميع الناس كانوا بتلعة
وجئت بجدي درام وابن درام

لظلت رقاب الناس خاضعة لنا
سجوداً على أقدامنا والجماسم

ومن الراعي النميري قوله :

كم من أبلى يا جرير كأنه
قمر المجرة أو سراج نهار
لن تدركوا كرمى بلّوم أبيكم
وأوابدى بتمحل الأشعار
ومن جميل قوله :

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا
وان نحن أومأنا الى الناس وقفوا
قالوا وهذا من قصيدته التى أولها :
عزفت بأعشاش وما كدت تعزف
وأنكرت من حواء ما كنت تعرف
وقد انتهت تسعة أبيات أخرى من القصيدة نفسها
من الأعلام العبدى :

والعجيب فى الموضوع أن النقاد يلمسون له العذر
فيما فعل فيقولون : إنما فعل الفرزدق بجميل وذى الرمة
وغيرهما هذا لأنه كلما مر به شعر جيد رأى نفسه أحق
به من قائله لفضله عليه فى الشعر ولأنه من جنس جيده
لا ردىء قائله •

الشعر الحلمنتيشى

فى أواخر العشرينات وأوئل الثلاثينات من هذا القرن ، كذ نقرأ فى مجلة كانت تصدر آنذاك عن دار الهلال اسمها الفكاهة ، شعرا تختلط فيه العمية بالفصحى من نظم المرحوم حسين شفيق المصرى أحد أعلام الفكاهة والأدب فى ذلك الأوان ، وكان الشعر معارضات لأشهر القصائد العربية فى العصور المختلفة ، وقد اتخذ له صاحبه عنوان « المشهورات » وكان يوقعه بامضاء «شاعر الفكاهة» ومن أمثلة ما نظمه معارضته لقصيدة طرفة التى أولها :

لحولة أطلال ببرقة نهمد
تلوح كباقي الوشم فى ظاهر اليد

فقال :

لزينب دكان بحارة منجد
تلوح به أفقاص عيش مقسدد

وكان صيت الزجل كله والفكاهة كلها منعقدا
للأستاذ حسين شفيق المصرى وأوغر ذلك عليه صدر
المرحوم محمود بيرم التونسي ، الذى لم يلق من زمنه الا
النفى والتشريد فهجاء بقصيدة مشهورة يقول فى بعضها :

يا حسين ابن شفيقه
ضجرت منك المخلقة

أبدا تحدث كالناقو
س أصواتا عتيقة

هل ترى الناقوس قد
غير فى الدنيا زعيقه

أم رأيت الجحش يستبد
ل ما عاش نهيقه

حامل جمجمة جوفاء
بالقطع خليفة

ثم أخذ يزاحمه فى معارضاته للقصائد القديمة
فيسمونها ويدخل فيها بعض العبارات العامية والكلمات ثم

يغير من أفكارها ومعانيها ما يجعلها مضحكة ولكي تكون
المزاحمة واضحة جعل بيرم عنوان معارضاته «المشخورات»
ووقعها باسم « شاعر السفاهة » •

ومن أشهر القصائد التي عارضها بيرم معارضته
لقصيدة صوفية نظمها الشاعر الكبير عمر بن الفارض وقال
في أولها :

أتم فروضى ونفلى
أتم حديثى وشغلى
يا قبلتى فى صلاتى
إذا وقفت أصلى
جمالكم نصب عيني
إليه وجهت كلى
وسركم فى ضميرى
والقلب طور التجلى

فقال بيرم مصورا حال بعض معاصريه :

أتم فروضى ونفلى
أتم حديثى وشغلى

أمل الكلوب ومالى
عن الكلوب تخلى
قضيت فيه حياتى
على سبيل التسلى
الناس تلعب يوما
وكان لعبى ثملى
كفى بجسمى دليلا
وشعرى المتدلى
وبدلة ليس فيها
من النظافة ملى
وجزمة بنت كلب
منها ترى الناس رجلى
والأكل خبز وفجل
لا بل ومن غير فجل

وعارض بيرم التونسي فصيحة الشريف الرضى التى
يقول فى مستهلها راثيا :

منابت العشب لا حام ولا راع
مضى الردى بطويل الرمح والباع

فقال :

حطوا الفير على الدكان يحرسه
فباعه جملة لا بيع قطاعى

جاء الحرامى له ليلا وقاوله
على الذى فيه من مال وابضاع

والصبح جاء الى الدكان صاحبه
فلم يجد فيه غير السقف والقاع

قال المعاون شغل ليس نعرفه
قاللص لا يسرق المستيقظ الواعى

وقال شوقى فى أنس الوجود :

قف بتلك القصور فى اليم غرقى
مسكا بعضها من الذعر بعضا

فقال يرم التونسي فى أحد ندماء شوقى وكان قد
أصيب بداء القراع :

بأبى قرعة عليها عروق
(حسنت صتعة وطولا وعرضا)

فوق سطح المساء مشتبات
(ممسكا بعضها من الذعر بعضا)

قرعة فوق هام حر كريم
(كالثرى تريد أن تنقضا)

رصعت باللائى الحمر زهرا
(يا سماء الجلال لاصرت أرضا)

ذاك نوع من الضياء غريب
(كان حتى على الفراعين فرضا)

كل لون تريده فيه يبدو
(لا تحاول من آية الدهر غضا)

والصدور من نظم بيرم والاعجاز لشوقي •
واشتهرت فى ذلك الأوان قصيدة للسيد محمد
توفيق البكرى تسمى « المنبهجة » يقول فى أولها :-

قم نحو حماء وابتهج
وعلى هذا المحيا فميج

ودع الأكوان وقم غسقا
وأصدق فى الشوق وفى اللهج

أَيَّامُ أَخِي تَصَاحِبُ مَنْ
لَمْ يَنْهَكَ عَنْ طَرَقِ الْمَوْجِ
فِيَعَارِضُهُ بَيْنَ بَمَنْبَهْجَةٍ سَاخِرَةٍ يَقُولُ فِيهَا :
يَا صَاحِبَ وَحَقِّكَ لَيْسَ عَلَى
مَنْ رَامَ الْمَرْقَصَ مِنْ حَرْجِ
الرَّقْصِ حَيَاةَ النَّفْسِ فَقِمْ
وَادْخُلِ لِلْمَرْقَصِ وَانْدَمِجْ
جَمْعُوا النِّسْوَانَ مَعَ الْفَتَيَا
نَ فِيَا لِلْأَمْرِ الْمَنْبَهْجِ
مَا كَادَ مَغْنَى الْقَوْمِ يَدُقُ
الدَّقَّ بِلَحْنٍ مِنْهُ شَجِي
حَتَّى انْفَرَطَتْ وَحَدَاتُهُمْ
ثُمَّ اِزْدَوَجَتْ بِالْمُزْدَوِجِ
وَفِيهِ اللَّهُ عَلَى حَدِّهِ
قَمْنٌ بِالشُّوْقِ الْمُتَعَلِّجِ
فِي الرِّكْنِ يَرْقُصُ لِحْنِهِ
وَتَرْوَحُ عِمَامَتُهُ وَتَجِي

ومن يوم نظم بيرم منبهجته ترك الناس فى حلقات
الذكر المنبهجة القديمة الأصيلة وكنت أظن أن « مسخرة »
القصائد القديمة - أى تحويلها الى قصائد ساخرة - عمل
نهض به ابتداء حسين شفيق المصرى ثم قفى على اثره
محمود بيرم التونسى حتى وقعت عيني صدفة على شبيه لهما
بل انه لأخف منهما دماً - فى صحائف تاريخ الجبرتى ذكر
خبر وفاته فى حوادث سنة احدى وسبعين ومائة وألف
هجرية وقال عنه انه الشيخ الصالح الشاعر اللبيب النازم
النائر الشيخ عامر الأبنوطى الشافعى شاعر مفلق هجاء لهيب
شراره محرق ، كان يأتى من بلده يزور العلماء والأعيان،
وكلمه رأى لشاعر قصيدة سائرة قلبها وزنا وقافية الى الهزل
والطبخ فكانوا يتحامون عن ذلك ، وكان الشيخ الشبراوى
يكرمه ويكسوه ويقول له يا شيخ عامر لا تزفر قصيدتى
الفلانية - ومضاها لا تجعلها ذات رائحة نتنة ويعطيه جائزة
ومن بعده الشيخ الحفنى كان يكرمه ويفدق عليه ويستأمن
لكلامه وكان شيخاً مسناً صالحاً مكحل العينين دائماً تهجياً
فى هيئته ومن معارضاته ألفية الطعام على وزن ألفية ابن
مالك يقول فيها :

يقول عامر هو الأبنسوطى
أحمد ربى لست بالقنوط
وأستعين الله فى نفسه
مقاصد الأكل بها محبويه
فيها صنوف الأكل والمطاعم
لذت لكل جائع ومائم
الى أن يقول:

طعامنا الضانى لذيد للنهم
لحما وسمنا ثم خبزنا فالتقم
فانها نفيسه والأكل عم
مطاعما الى سناها القلب أم

ومنها : والأصل فى الأخباز أن تقمرا
وجوزوا التقديد اذ لاضررا
وعارض الشيخ عامر قصيدة الطغرائى المشهورة
بلامية العجم والتي أولها :
أصالة الراى صاتنى عن الخطل
وحلية الفضل زاتنى لدى العطل

مجدى أخيرا ومجدى أولا شرع
والشمس رآد الضحى كالشمس فى الطفل

وان أردت نجاحا أو بلوغ منى
فاكتم أمورك عن حاف ومتعل
وذلك بقوله :-

أناجر الضأن تريق من اللعل
واصحن الرز فيها منتهى أملى

أكلى غداء وأكلى فى العشاء على
حد سوى اذا اللحم السمين قلى

فيم الإقامة بالأرياف لا شبعى
فيها ولا نزهتى فيها ولا جذلى
أريد أكلنا نفيسا أستعين به

على العبادات والمطلوب من عملى
والدهر يفتح قلبى من مطاعمه
بالعدس والكشك والبيصار والبصل

ناديت هيا ولا تبطين بفركك لى
 فانه خلق الانسان من عجل
 ولعمري بن الوردى لامية مشهورة يقول فيها :-
 اعتزل ذكر الاغاني والفزل
 وقل الفصل وجانب من هزل
 ودع الذكر لأيام الصبا
 فلأيام الصبا نجم أفل
 -وأهجر الخمرة ان كنت فتى
 كيف يسعى فى جنون من عقل
 لا تقل أصلى وفصلى أبدا
 انما أصل الفتى ما قد حصل
 فجاء الشيخ عامر الأبنوطى فقلها طيخا فقال :-
 اجتنب مطعوم عدس وبصل
 فى عشاء فهو للعقل خبيل
 وعن اليبصار لا تقربه لا
 تمس فى صحة جسم من علل

واحتفل بالضأن ان كنت فتى
زاكى العقل ودع عنك الكسل
من كباب وضلوع قد زكت
أكلها ينفي عن القلب الوجيل

المدح فى الشعر

كان المدح فى الزمن القديم بابا واسعا من أبواب كسب الرزق عند الشعراء فجل الشعراء كانوا يتكسبون بالشعر ، وينالون به عطايا الملوك والأمراء والوزراء وأهل الوجاهة والثراء لكن الشاعر القديم رغم ذلك كان حريصا على أن يث خواطره وبعض معالم نفسه فى أبيات قصائده فى المدح ، حتى ان بعض الشعراء دخل على ممدوحه يوما وألقى بين يديه قصيدته فى مدحه وكانت تشتمل على نحو أربعين بيتا جعل الشاعر منها نيفا وثلاثين بيتا فى الغزل بمحبوبته وأبقى للمدوح بضعة أبيات !

وكان الشاعر لا يمدح فردا بذاته بقدر ما يصور بغض المثل العليا فى صفات كانت ولا تزال أئمة عند العرب كالشجاعة والكرم والايثار والمروءة التى هى جماع الفضائل كما يقولون •

وقد كان الشعراء يمدحون ولا يسألون ، ابقاء على
باء وجوهم ، وتكريما لمكانتهم في الشعر بين أقوامهم ،
حتى جاء الأعشى فسأل بصراحة ، فثار به النقاد ثورة عنيفة
وقالوا انه أسقط مكانة الشعر والشاعر بعد أن رفعهما أمثال
النابغة، وجاء بعده الخطيئة وجريير فسألا واسترفدا وأبرزت
حائية جريير ذلة السؤال ومرارة الاسترفاد حيث يقول :-

سأشكر ان رددت على ريشي
وأثبت القوادم في جناحي

لكن المدح مع هذا ظل موضوعا من موضوعات الشعر
العربي لا يمكن طرحه ولا الاستغناء عنه وتعالى فيه الشعراء
حتى أوقعتهم المغالاة في الكفر كابن هانيء الأندلسي الذي
يقول لمدوحه :-

ما شئت لا ما شئت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار

أو يقول :

نزلت ملائكة السماء بنصره
واطاعة الاصباح والامساء

وبلغ بهم الأمر أن صار المدح لا يصدر عن عاطفة
ولاً ينبت من صدق فجب فيه ماء الشعر وذوت نضارة
القصيد ، لذلك كان أهم ما دعا اليه دعاة التجديد في أوائل
هذا القرن ترك المدح الكاذب ، وهو المدح الذي لم تلهمه
عاطفة صادقة ولم تدفع اليه تجربة وجدانية صحيحة .

لكننا مع هذا لا نستطيع أن ننكر المدح لأنه مدح ،
فالمدح الصادق أدخل في باب الشعر من الغزل الكاذب
والتشبيب المصنوع والوصف الذي لا يتجاوز ظواهر الشيء
الموصوف . ولذلك فتحن نرحب بالمدح الصادق ، ولا سيما
ذلك الذي يتأسى أمداح أسلافنا من الجاهليين والاسلاميين
الأوائل ، حين ينصرف هم الشاعر الى تصوير المثل العليا
في الشجاعة والكرم والمروءة ، فان هذا المدح له من الأثر
في مشاعر الناس ووجداناتهم ما للنسيب والتشبيب .

وتبعاً لما تقدم لم يزعجني ما قرأته في ديوان معروف
الرضائي من الأمداح ولم أعتبره شاعراً رجياً من أهل
القديم بهذه الأمداح وقد أنصف صديقنا المحامي العراقي
هلال ناجي حين كشف عن بواعث هذه الأمداح . وعن
الصلة الوثقى التي كانت قائمة بين معروف الرصافي

وممدوحه المحبب مظهر الشاوى الذى كان يعيش فى بغداد
وتوفى ليلة الخامس والعشرين من يولية (تموز) سنة ألف
وتسعمائة وثمان وخمسين ميلادية ودفن بجامعة المعروف
باسمه والذى شيده فى كراة مريم فى جانب الكرخ من
بغداد .

وكان الشاوى فى المعتقل لبعض ظروف سياسية سنة
١٩٤٤ وسمع أو قرأ مقالا كتبه الأديب العراقى السيد
مهدي القزاز بمجلة الأديب البيروتية عن الرصافى ،
ووردت فى المقال عبارات تتم عن مقدار الفاقة المزرية التى
كانت تحيط بالرصافى - وهذا تعبير الصديق هلال ناجى
بنصه - وروى الكاتب أن الرصافى يتوكأ على عصا من
جريد النخل قال الشاوى فاقشعر جلدى ووقف شعر
رأسى وخجلت أن تكون فى العراق خمسة ملايين نسمة
ومنهم شاعر واحد ويعجزون عن اعاشته فكنت من فورى
الى وكيلى فى مزارعى الملا عبد الهادى كتابا طلبت فيه أن
يتناح ثلاث كسوات عربية كاملة وأن يصنع للرصافى عصا
من الأبنوس مفضضة ويطعمها بالذهب ويكتب عليها انها
هدية الشاوى لصديقه الرصافى وتم ما أردت فشكرنى

الرصافي بقصيدة ثم خصصت له راتبا شهريا قدره أربعون
دينارا عراقيا ظل وكلائي يدفعونها ثم قصدت كاتب العدل
فأوصيت أن يستقطع من تركتي هذا المبلغ شهريا وتدفع
الى الرصافي مادام حيا اذا عاجلتنى المنية قبله . ولكن
الرصافي انتقل الى رحمة الله وصديقه الشاوي في المعتقل .

وهذه مأترة لا بد أنها تؤثر في الحجر ، فضلا عن
شاعر فيه من رهاقة الحس ولطف الشعور ما في الرصافي
رحمه الله ، فاذا نظم الرصافي في مدح هذا المنعم الكريم
بعض القصائد فانتا تتقبل منه هذا المدح على أنه شعر
صادق صحيح له قيمته في ديوان الشعر الأصيل ، يقول
الرصافي من قصيدة بعد تمهيد شعري طويل :-

أظهر قد أخرستني اذ شملتني
بعاطفة قد ضاق عنها التصور

على حين كان الناس شتى قلوبهم
وكل لكل كاره متكرر

فأطلقت بالاحسان حرا مقيدا
به يترامى جده المتعثر

فوالله لا أدري ، واني لحائر
بأى لسان ناطق لك أشكر

سأشكرك الشكر الذى أنت أهله
وان كان شكري عن نوالك يقصر

واجعل قرص الشمس عند طلوعها
علامة شكر كل يوم يكرر

اذا ذر قرص الشمس كل صبيحة
تلا قرنها شكر كوجهك مزهر

ويقول الرصافي فى الحلة التى كسى بها :

أهديت لى حلة غيظ الحسود بها
لأنها تحفة من أنفـس التحفـ

فرحت أرفل فيها وهى ضافية
وأنت ترفل فى الضافى من الشرف

وصار عيشى بما أوليتى رغدا
وكان من قبل رهن البؤس والشظف

وفى العصى يقول :

أنا شيخ وذى عصاى فيه
قد أتتى من مظهر لى هدية

صاغة الصابئين قد البسوها
حلية ذات صنعة عبقرية

وشحوها من مظهر بكلام
معرب عن مودة أخوية

هى تحكى عصا ابن عمران قدرا
فلذا صيغ رأسها رأس حية

فسأمتى بها قويا سويا
بعد ما كنت ماشيا كالخنيبة

وستبقى الذكرى بها لآلاء
موثق بالوشائج الأدبسية

شرف قد أفاد فيه إختائى
لكريم من أسرة حميرية

.. لكن الشيء العجيب حقا ، هو أن أعرف بعد قراءتى

هذا الكلام أن الرصافي قد ألف جمهرة من الكتب بلغت خمسة وعشرين وأن بعضها كديوانه قد طبع عدة مرات وأن القراء قد اقتنوا هذه الكتب بدليل نفاذ طبعتها ، وأنه مع هذا كان فقيرا عندما يعيش في شيخوخته تحت رفق أحد الأثرياء ولا ينفعه هذا الصيت الأدبي والشعري الذي ملأ العالم العربي من خليجه الى المحيط •

ولكن لا • لا عجب وعندنا مثل آخر كهذا المثل وإن كان أقل منه في حدته وشدته عندنا العقاد الذي اكتملت مؤلفاته مئة في حياته ، وطبع بعضها عشر طبعات ومات قبل منتصف شهر مارس (آذار) سنة ألف وتسعمائة وأربع وستين ، وحين فتحت حافظة نقوده بعد وفاته بقليل وجد فيها بضعة عشر جنيها أخزى هنا أن أذكرها بالتجديد ولم يترك فلسا واحدا في مصرف من المصارف •

ويقولون بعد هذا إن العقاد كان عميلا وكان تاجر مبادئ ألا ساء ما يقولون !

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر ؟ فقد كنت أمس في إحدى قاعات الموسيقى وسمعت لحنا رائقا لأحد الموشحات الأندلسية تؤديه فرقة من الفرق الرسمية الكبرى ، والآلاف

من المحتشدين فى هذه القاعة يسمعون منصتين معجبين
وكان على رموسهم الطير ، وعرفت اسم الملحن العبرى
وتذكرت انى رأيت فى أخريات أيامه فى الثلاثينات من
هذا القرن يتسول ، أى والله يتسول ، أى يسأل بعض الناس
صدقة +++++ وقلت ان القدر قد لطف بالرصافى حين
قيض له صديقه مظهر الشاوى ومن يدرى لعله لو لم
يقبضه له لكان كهذا الموسيقى العبرى .

تمنح جنيهان من الخيرات

منذ نحو ربع قرن من الزمان أو يزيد قليلا كنت أعمل فى وزارة الأوقاف المصرية مديرا لمكتب وزيرها الأديب العالم الأستاذ ابراهيم دسوقي أباطه رحمه الله وجاء شهر رمضان المبارك ورصدت الوزارة مبلغا من اعتمادات الخيرات يوزع على المحتاجين والفقراء لهذه المناسبة الاسلامية المجيدة وكانت الطلبات تقدم الى الوزير أحيانا والى وكيل الوزارة أحيانا أخرى وقطعت طريق الوزير الى مكتبه بالوزارة ذات يوم سيدة من ذوات الحاجة وقدمت طلبها الى الوزير يدا بيد، ووقع الوزير على الطلبات التى قدمت اليه وبينها طلب هذه السيدة وكان التوقيع على ورقة هذه السيدة « تمنح جنيهان من الخيرات » ثم جاءت الطلبات كلها الى مكتبى لتأخذ سبلها الى التنفيذ وفق ما أمر الوزير به ؟ فوجهت جميع الطلبات وجهاتها لكننى احتجرت فى مكتبى طلب هذه السيدة ؟ لما لاحظته من الخطأ النحوى فى

توقيع الوزير ، وأخذت أتحين الفرصة لاعادة عرض
الطلب على الوزير لاصلاح ما وقع من الخطأ فى توقيعه فما
كان ينبغي لى أن أدع ورقة كهذه تمر وعليها مثل هذا
الخطأ من رئيس جامعة أدباء الصروبة التى كانت تضم
صفوة الشعراء والأدباء فى البلد ومنهم ابراهيم ناجى
ومحمود غنيم وطاهر أبو فاشا وأحمد مخيمر والدكتور
ابراهيم سلامة وأحمد عبد المجيد الغزالى وأضرابهم
وللوزير ولا شك خصوم سياسيون ، سيجعلون من مادة
هذا الخطأ موضوعا من موضوعات حملاتهم عليه فى داخل
البرلمان وفى خارجه اذ أنهم سيصورونه فى صورة الذى
يتعرض لما لا يحسن ؛ وسيضعونه الى جانب ذلك الوزير
الذى أراد أن يحيل احسدى الأوراق يوما الى « القلم
القضائى » فكتب عليها « تحال هذه الورقة الى القلم القضائى »
لأنه ظن أن الهمزة مبدلة من قاف على نحو ما يفعل أهل
الحضر والمدن فى مصر من قلب القاف همزة فوقع فى خطأ
شنيع ظل خصومه السياسيون يتابعونه به زمنا طويلا
ويصفونه بالأمية والعجمة وما يتبع ذلك من عدم استحقاقه
لمنصبه الرفيع خشيت أن تمر ورقة الجبهين وفيها هذا

الخطأ لأننى أرتأيت أن الفعل الذى يتعدى لمفعولين وهو
يمنح اذا بنى للمجهول كان المفعول به الأول نائباً للمفاعل
وظل المفعول به الثانى على حاله والمفعول به الأول فى
ورقة هذه السيدة أو بالأدق فى توقيع الوزير على ورقة
هذه السيدة ، يندو فى حالة البناء للمجهول ضميراً مستترا
وامستاره هنا لا يعنى زواله من الجملة وانصرافه من جملة
كلماتها فهو باق وان لم يظهر ويبقى المفعول به الثانى على
حاله منصوباً ، كل ما فى الأمر أن الجملة فقدت الفعل وتغير
الفعل الى هيئة المبني للمجهول بعد فقد الفاعل وبقي بها
المفعولان فأما أحدهما فقد اقتحم مكان الفاعل ، وأما الثانى
فهو على ما كان •

وقد شغلت الوزير شواغل الوزارة والسياسة
والحزب الذى كان ينتمى اليه فلم أستطع لقاء طيلة أربعة
أيام ، وفى اليوم الخامس قطعت السيدة المسكينة طريقه
مولولة ضاحكة ان الناس جميعاً قد أصابهم خير الوزير وبر
الوزارة وانها هى وحدها قد ذيدت عن الخير والبر لسبب
لا تدريه ، وتذكر الوزير أنه أمر بمنحها جنيهاً وذكر لها
ذلك فأكدت له أنها لم تتسلم شيئاً •

ودخل الوزير مكتبه واستدعاني على الفور وسألني
عن جنهيه هذه السيدة المسكينة فقلت اننى قد احتجرت
الطلب وعليه التوقيع عندي حتى يتم تصحيح الخطأ الذى
وقع فى توقيع الوزير ، وشرحت للوزير الخطأ كما رأيته ،
لكن الوزير أحب أن يتثبت وأن يعرف وجه الصواب بين
رأىى وتوقيعه فأعطى السيدة الجنيهين من ماله الخاص
ودخل علينا فى هذه اللحظة المرحوم عبد الستار الباسل
عضو مجلس الشيوخ وأحد زعماء القبائل العربية فى مصر
وشقيق المرحوم حمد الباسل باشا وزوج السيدة ملك
حبنى ناصف التى كانوا يلقبونها « باحة البادية » فقال له
الوزير جئت فى أوامرك وسأله المسألة التى نحن بصدد
ومن عجب انه رأى خلاف رأىى بمقولة أن الجنيهين هما
نائب الفاعل ، لا غيرهما واحتدم الجدل بينى وبينه ، ولم
نصل به الى غاية وخشيت أن ينهزم رأىى لأنى لست
الوزير أو لأنى لست عضو مجلس الشيوخ فقررت أن
يخرج التحكيم من غرفة الوزير وأن ينتقل الى غرفة
رئيس تحرير مجلة الرسالة المرحوم الأستاذ أحمد حسن
الزيات ولم يكن اختيارى له لأنى أراه أعظم نحاة عصره ،

ولكن لأننى كنت أعرف أن الوزير معجب بنثره وإنشائه غاية الإعجاب وأنه يجعله أعظم الاجلال ولا يفتأ يتحدث عن أدبه وبلاغته وجمال مقالاته وروعته وأعلنت للوزير وضيفه الشيخ الجليل ما أرى ، وسارعت فأدرت قرص الهاتف على رقم الأستاذ الزيات فاذا هو فى مكتبه واذا أنا أشرح له الأمر ، واذا هو يتطوع بالحضور على عجل ليبدى رأيه فى هذه القضية النحوية الخطيرة .

وجاء الأستاذ أحمد حسن الزيات رحمه الله ، وعلم أدباء الوزارة بالأمر من أمثال المرحومين كامل كيلانى ومحمود عماد وعلى شوقى وإبراهيم ناجى وحسن السندوبى وانهقد مجلس الحكم وأخذت أترافع كما يترافع المحامون فى القضايا وأدعم رأيى بالشواهد والأسناد من دواوين الشعر وكتب الأدب والنحو جميعا وأخذ الوزير يؤيد رأيه بمقولات ومنقولات وانضم جميع الحاضرين الى رأيى عدا واحدا لا أذكره الآن خرج التوقيع تخريبا لطيفا ، وكان من شواهد ما ذكره بعض المفسرين فى قوله تعالى فى احدى القراءات « يسبح له فيها بالغدو والآصال » رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ... الى آخر الآية

الكريمة ، فالفعل يسبح مبنى للمجهول فى هذه القراءة ،
ونائب الفاعل هو الجار والمجرور «له» وأما كلمة رجال
فقد جاءت مرفوعة كأنها جواب مقدر عن سؤال سائل :
من المسيح ؟ فقول : رجال لا تلهيهم فهم خبر مبتدأ مقدر ،
وتقديره « المسيح رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع » .

ولم أجد بدا من الاذعان لصحة الوجه الذى استشهد
بتلك القراءة لهذه الآية الكريمة لكننى مع هذا استمسكت
برأىى ووجدت أن هذا التأويل يحتاج الى تقدير شيء
وأن رأى الأول لا يحتاج الى أى تقدير ولا مفر بعد
ذلك من انتصار القاعدة النحوية القديمة التى تقول :
« ما لا يحتاج الى تقدير أولى مما يحتاج » وأصدر الزيات
حكمه بنصرة رأىى وصحة رأى الوزير ، فأصررت على
كشف الأمر أكثر من هذا ملتصبا لديهم أنه اذا كان
الرأيان صحيحين فلا يخرج الأمر فيهما عن ثلاث : الأولى
تساوى الرأيين فى الصحة والثانية رجحان رأى الأول
على الثانى والثالثة رجحان رأى الثانى على الأول ثم
لا شيء بعد هذا وأعلن الوزير عن اقتناعه برجحان رأىى
الذى ذهبت اليه ، وان سلطان العلم لا يعلو عليه سلطان

وانفضت المحكمة والمحكمة بعد أن سمعت منى هذه الأبيات
المرتجلة فى الموضوع :

قال الوزير قوله
فى الدهر صارت مثلاً
للعلم سلطان فلا
يعل عليه من عـ
وحكم الزيات حكماً
فضلاً له المـ
هما جنيهان أنا
را فى الندى مشكلاً
بالرفع أم بالنصب
يتلوها علينا من تـ
وكشف الحق لنا
عن جانبيه وانجلى
وقد سمعنا حكمة
كأنها كأس طـ

يا مجلس الأكارم الـ
 أمجاد لا أبرح لا
 حتى أقول فيك ما
 ترويه هضب وفلا
 وان أكن قد قلته
 مستجلا مرتجلا
 لا عيب إلا أن أقو
 ل كاذبا متحلا

المسبحة

يجيء شهر رمضان المبارك كل عام ، فتشيع بين الناس عادة حمل المسبحة وقد يحملها بعضهم فى غير شهر رمضان ، فما المسبحة ؟

المسبحة ، من النظرة الأولى ، كلمة على وزن المفعلة من سبح ، وسبح هنا - فيما نرى - ليست من السباحة التى هى العوم فى الماء ، وانما هى من التحريك والتقلب والتصرف ويكون المصدر حيثئذ السبح لا السباحة وفى كتاب الله الكريم « ان لك فى النهار سبحا طويلا » •

ويقال فيها « السبحة » وهى كلمة مولدة لم ترد فى نص قديم من كلام العرب • وعامة أهل مصر وكثير من غير أهل مصر يقول انها السبحة ! بكسر السين •

والظاهر انها مأخوذة من التسبيح أى قولك سبحان الله ، أو أنها مأخوذة من اسم الله العظيم «سبح ، قدوس» •

وليس فيما بين أيدينا من المراجع ما يدل على أن المسلمين الأوائل فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يتخذون المسابح ، يسبحون الله عليها بعد حباتها واحدة فى اثر واحدة ولكننا فى عصور تلت العصر النبوى بعدة قرون رأينا المسابح فى أيدي كثير من الناس ، والظاهر أنها بدأت فكرة ساذجة ثم تطورت بمرور الأيام ، اذ بدأ العابد يتقى عددا من الحصى المتشابه فى الشكل والحجم ، ثم يذكر اسم الله به ، حصاة بعد حصاة حتى اذا انتهى من نقل الحصى من مكان الى مكان تبعاً للتسبيح ، عرف أنه ذكر الله بعدد هذا الحصى الذى اتقاه ، ثم ما لبث أن ثقب هذا الحصى ، ونظمه فى خيط ، لضبط عملية التسبيح ثم توالى التحسينات على هذا الاختراع فاستبدلوا العاج والأبنوس والكهرمان والزجاج والذهب واللؤلؤ والمرجان بالحصى ، وأصبحت المسبحة من أقوى الدلالات على حاملها من غنى أو فقر فضلا عن دلالتها على شخصيته من طريقة امساكها ومن سرعة التسبيح أو بطئه الى نحو ذلك من الأحوال .

ومسبحة المسلمين نوعان نوع يبلغ عدد حباته ثلاثا وثلاثين حبة ، ونوع يبلغ عدد حباته تسعا وتسعين ، وثمة

نوع ثالث ولكنه من الشذوذ والندرة بحيث لا يحسب له حساب وتلك هى المسبحة الألفية التى تضم ألف حبة ولسنا ندبرى سر ذات الثلاث والثلاثين حبة الا أن تكون ثلثا للتسع والتسعين ، وهى بالفعل تسمى عند كثير من الناس الثلث ، لكن بعض الباحثين يؤكدون أنها منقولة من المسيحية ، لأنها تشير الى السنوات التى عاشها السيد المسيح على الأرض وهى ثلاث وثلاثون سنة فيما يرجع بعض المؤرخين لكن ابن قيم الجوزية ينكر ذلك ويدل على صحة رأيه فى كتابه أعلام الموقعين •

أما ذات التسع والتسعين حبة فهى تقابل عدد أسماء الله الحسنى المعروفة وكلا النوعين معروف ومستعمل فى كثير من البلاد الاسلامية ، غير أن متخذ المسبحة القصيرة أقرب ما يكون الى التائق ، ومتخذ المسبحة الطويلة أقرب ما يكون الى التسك والتدين •

وقد قرأنا فى بعض المصادر أن بعض رجال الدين من الكاثوليك يتخذون مسبحة مؤلفة من خمسين حبة ولكنهم لم يعرفوها الا بعد القرن الثالث عشر الميلادى أى

أنهم نقلوها عن العرب بعد حضورهم الى الشرق فى الحملات الصليبية المعروفة .

والسبابة وهى الاصبع الذى يلى الابهام فى يدى الانسان تسمى السباحة هل لأنها أكثر الأصابع سباحا أى حركة ؟ أم لأنها هى التى تسند المسبحة ليأخذ منها الابهام حبة بعد حبة ؟ المهم أنها سباحة وفى الحديث الشريف عن الوضوء فأدخل أصبعيه السابحتين فى أذنيه .

وصناعة المسابح وبيعها ، صناعة رائجة فى بعض البلاد الاسلامية خصوصا بالقرب من الأضرحة والمزارات والعتبات المقدسة وهى تشكل نوعا من النشاط فى اقتصاديات هذه البلاد .

ومادة التسبيح فى القرآن الكريم أكثر من أن يحصرها العد ، وقد جاء فى التنزيل « سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض - خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم - تسبح له السموات السبع والأرض ومن فىهن - وتسبحوه بكرة وأصيلا - ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك - كى تسبحك كثيرا - ويسبح الرعد بحمده - وان من شئ الا يسبح بحمده - يسبح له فيها بالغدو والأصوال رجال - ألم

تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض - وسخرنا
 مع داود الجبال يسبحن - يسبحون الليل والنهار
 لا يفترون - فسبح بحمد ربك - ومن آتاه الليل فسيحه -
 وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده - وسبح
 بحمد ربك قبل طلوع الشمس - سبحان الله وما آنا من
 المشركين - سبحان الذى أسرى بعبده ليلا - قل سبحان
 ربى - سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا - وقالوا اتخذ الله
 ولدا سبحانه *

وبعض الناس يمسك بالمسبحة ولكن قلبه لا يتابع
 لسانه فى ذكر الله والصلاة على نبيه فهم بالمسبحة يخفون
 حقيقة أمرهم وفى أمثال هؤلاء عثرنا على قصصيدة لطيفة
 لشاعر من شعراء العصر المملوكى عصر انحطاط الشعر
 وفساد نظمه ، فى الجزء الأول من تاريخ الجبرتى المشهور
 والقصيدة لا تعتبر نموذجا من نماذج الشعر الجيد ولا حتى
 الشعر المتوسط ولكنها طريفة من صاحبها الشيخ حسن
 البدرى الحجازى الذى يقول عنه الجبرتى انه الشيخ
 العمدة المنتقد الفاضل الشاعر البليغ الصالح وكان عالما
 فصيحاً مفوها متكلماً منتقداً على أهل مصره وأبناء عصره ،

يقول البدرى الحجازى من قصيدته الطويلة التى تكاد تبلغ
أربعين بيتا :

أحذر أولى التسييح والسبحة
والصوف والعكاز والشملة
والدلق والابريق لا سيما
شيوخ ابليس أولى الشرمة
قد صار ابليس لهم تابعا
يقول يا للعون والنجدة
ما حويتم علمونى فما
لى عنكم فى المكر من غيلة
لكم قيادى وانقيادى وما
مثلكم فى الناد والندوة
واتم تاجى على هامتى
ما همت الا كتم همتى
ما زلت ما زلت عيتى
فى غيتى ما كنت أو حضرتى
ذو كرة بالمال يغبون ما
لهم بغير المال من بغيته

لكنهم فى الفسق أرقى الورى
كبا ترى من غير ما مرية

فى هية يمشون مع هية
تخشعا من غير ما خشية

ولحافظ ابراهيم قصيدة طريفة منشورة فى ديوانه
قالها على لسان بغض المتصوفة فى محبوب نافر ، يقول فيها
وقد ذكر السبحة :

أخرق الدف لو رأيت شكيا
وافض الأذكار حتى يغيا

هو ذكرى وقبلتى وأمامى
وطيبي اذا دعوت الطيبا
لو ترانى وقد تعدت قتلى
بالتنائى رأيت شيخا حريبا

كان لا ينحنى لغيرك اجلا
لا ولا يشتهى سواك حيا
لا تعين يا شكيب ذيبى
(انما الشيخ من يذب ذيبا)

فسلوا سبختى فهل كان تسيب
حى فيها الا (شكيا شكيا)

ولأخينا الشاعر : محمود حسن اسماعيل قصيدة ذكر
فيها المسبحة من ديوان كان قد نظمه ونشره فى مدح
الملك السابق فاروق وسمه « ديوان الملك » وكان الملك
فاروق يحمل مسبحة من الكهرمان النادر فأوحى للشاعر
بهذه القصيدة قال فيها :

وحملت مسبحة كأن مدارها
فلق الهدى للحائر المتبرم
جباتها فلذ القلوب خواشما
عطلن اللثامات آمال الفم
نسق من الملك انفردت بعزه
لسواك فى التاريخ لم يتقدم !

والشئ اللافت للنظر هنا أن الشاعر جعل المسبحة
من مفاخر فاروق ومن المعانى التى تفرد بها من ملوك
زمانه بل بين الملوك فى كل الأزمان وما نعتقد أنه وفق فى
هذا المديح فان سبق الى حمل المسبحة لا يدل على فضيلة

نفسية أو وطنية أو دينية يمكن أن يتمدح بها المتمدحون
وما نحسب أن شاعرا يستطيع أن يمدح ملكا بأنه أول من
استخدم البساط في مجلسه ، أو أول من ألبس حرسه
زيا أحمر أو أخضر أو أصفر ، فهذه صفات لا تتكون
منها فضيلة يمكن أن تصيف الى فاعلها فضل سبق يزهو
به ويمدحه به المادحون •

مع شاعر شباب

نحن الآن مع شاعر ، لا يزال فى طور الشباب ،
ومع ذلك فقد شاء القدر أن يحول بينه وبين الشعر ،
بل بينه وبين حياة العقل والتفكير والفن ، فألقى به فى أحد
أركان مصحات الأمراض العقلية ، لا يعرف أحدا ممن
يعودونه بل لا يعرف نفسه إذا هو سئل عن نفسه . وكان
هذا الشاب المسكين فى أواخر عهده بالعقل قد استودعنى
كراسة تضم بعض ما كتب من الشعر واتخذ لها عنوانا
« الصرخة الحمراء » لكنه حين سلمنيها ، لم أفطن الى أنها
تحمل رقم اثنين ومعنى هذا أنه غفل عن أن يسلمني
الكراسة الأولى ثم ضاع فى زحام هذا الكون العجيب فلم
أعد أسمع عنه الا أنه نزيل باحدى مستشفيات الصحة
النفسية وأنه أكثر نزلاتها غيابا عن الدنيا وعن نفسه .

كان هذا الشاب منذ نحو ربع قرن مضى من تلاميذى
بإحدى المدارس الثانوية بالقاهرة وقد ظفرت منى ومن

غيرى من أساتذته بالتشجيع والتوجيه حين آلمسنا فيه
شاعرا فى مدارج شاعريته الأولى ولكنه كان مع هذا يميل
الى التجديد والابتكار والحلق •

ومددت يدى منذ أيام الى أحد رفوف مكتبى فقالت
لى : « صرخته الحمراء » هأنذا وقلبت صفحاتها فدهشت
لأننى قرأت شعرا ممتازا ، وأدبا جيدا وأفكارا لا تدور
الا فى رأس فنان •

لكنى مع هذا - وأرجو ألا أكون ظالما وهو فى محنة
من دنياه - لاحظت فى شعره ما يدل على مستقبله العقلى
والنفسى ، أو ببساطة أدق كن يجب أن أعرف ما سيؤول
اليه أمره لو أننى قرأت هذه الكراسة منذ خمسة عشر
عاما ، أى منذ سلميها فى احدى ليالى رمضان سنة ألف
وثلاثمائة وأربع وسبعين هجرية قرأت فى كبراسته قوله :

كون يدور وفى دمي أسرار
لا يستار هدوءها العجبار

عمقت فلما أوغلت فى عمقها
خفيت فما لقرارهن قرار

لم يعلموا الا بأنى شاعر
أشدو فيخفق فى يدى القيثارة
يا ليتهم لمحو خلال ملاحنى
قدرا تغلف سره الأقدار
فيه من الأزل العريق معالم
وبه من الأبد البعيد شعار
أنا لست قديسا ولا متصوفا
أنا مهجة شدت بها أوتار
وقرات قوله :

انشد لجون الشعر أولا تنشد
أنا فى جحيم الحاضر المتمرد
أو لذ بصمت الناسكين تجلدا
أو ذب من الأشجان لا تتجلد
ادلجت فى هذى الحياة مشردا
وطريقى الممدود غير معبد
لا شئ غير التيه غير مفازة
فيها السراب الضخم لم يتبدد

وعلمت أن هباءه متوفر
وأضعت أسمى في الهباء فما غدى
وقرأت له :

قد كنت أشعر بالفناء يدب في
نفسى ويملاً ليلتى ونهارى
وتثور أشباح الظلام بعالمى
فيصيح من هول الظلام وقارى
وطالما عاث الردى فى خاطرى
فرثيت حصن شبابى المنهار
وأقول هل أمضى إلى قبرى ولم
تكمل أغاريدى ولا أوطارى
وقرأت له :

دنيا دموع يا رفيق رهية
قلبي وقلبك فى دجها كوكبان
تهدى الحيازى فى طريق شائك
ضخم الصخور ونحن نحن بحيران

ولقد يلوح لنا سراب خادع
فنقول انا قد وصلنا في أمان

لكن في هذا التراب هياكلا
سكنت ولم ينطق بفحواها الزمان

وقرأت له :

قالوا ابتسم قلت ابتسمت وشافني
مرح الطفولة والجمال الشيق

لتكنني لم انس أنى ذاهب
برحابتى فى جوف قبر ضيق

فى مهجتي أمل سيخفيه الردى
فكأنه فى مهجتي لم يشرق

يا شعلة المأساة هيا أحرقى
سأظل أسسم للهب المحرق

قرأت هذا كله كما قرأت غيره من شعر هذا الشاعر
المسكين ولفتنى أكثر من غيرها فكرة الحاح الموت على اقتحام
الكثر قصائده اقتحاما والظاهر أن الشاعر قد مرض يوما

مرضا شديدا حتى أصبح على شفا الموت ، كما تدل على ذلك قصيدة في ديوانه المخطوط عندي ، ذكر أنه كتبها وهو طريح الفراش في مستشفى الخازندارة بالقاهرة وأن نواحه بهذه المستشفى قد طال حتى يشس الشاعر من الحياة ، لكنه لم يئأس يأس من يتحول به بأسه الى التفريط في كل شيء ، والى عدم المبالاة بكل شيء ، بل يشس من الحياة وخاف الموت في آن ، فكان من هذين مطرقة هائلة وقعت على رأسه فأفقدته الرشاد .

لا أحب أن أذكر اسم هذا الشاعر هنا ، فقد يكون في ذلك تشهير به ، ولكنني أروى أنه بعد أن تقدم به المرض وثقلت عليه العلة النفسية كان يزورني في منزلي ، وينشدني شيئا من شعره القديم - أي الذي نظمه منذ عدة سنوات ، ثم ينشدني شيئا من شعره الحديث فإذا هو كلام لا وزن فيه ولا قافية ولا معنى ، وموضوعاته غريبة كل الغرابة على دنياه فالى ابنة القرصان الحزينة يوجه الحديث ، والى حارس المقبرة المتلفة بأسرار الغيب ويتوزع انشاده بين ومضات من هناك وشطحات من هنا ، يجد في انشادها جدا ، ويتسوقر في القائنها توقرا ، ولست أدري

ماذا يقول الآن فاني لم ألقه منذ عشر سنوات أو تزيد ،
وليس عندي من خبره الا أنه نزيل مصحة عقلية ونفسية .
واذا نحن حللنا ما تحت أيدينا من شعره ألفيناه
يدور حول عدة محاور رئيسية ففكرة الموت تطارده
مطاردة عنيفة ، ويحس هو ألا نجاة له منها فيأخذ ينوح
ويبكى دنياه ويصف القبر الموحش الذي ينتظره في جوف
فلاة لا يسلك اليها سالك ، وتدلف الأسرار الى اشعاره كما
رأينا ففي دمه أسرار ، ووراء الليل أسرار وخلف الحياة
أسرار وقدره تغلف سره أقدار ، فحياته كلها أسرار في
أسرار حتى لا يكاد يعرف من أمر نفسه ولا من أمر حياته
ولا من أمر ما حوله شيئا .

وعمره كله ادلاج وتشرذ ومجهول وهباء ، وهو بين
أمس مخنوق وغد ليس له قيمة ومشاعره كلها حيرة
وسراب وخداع والدنيا حوله هياكل ساكنة صامتة
لا تحدثه ولا يحدثها فكأنما تنكرو وكأنما ينكرها وبلاجلال
يصف وجوده بأنه مأساة !

ولعمري كيف يمكن أن تكون هذه حياة انسان ،
وكيف يمكن أن يسمى مثل هذا انسانا حيا تعيش حوله

الحياة وتنفض بمختلف الأشكال والألوان وهكذا نعرف
أن شعره منذ بواكيره الأولى كان يشير الى هذه النهاية
الأليمة التي وصل اليها •

ومنذ نحو خمسين سنة كتب المازني عن شعر شكرى
فى كتابه الديوان المشهور فذكر أن كلمة الجنون تتردد
كثيرا فى ثنايا هذا الشعر وأن التبرم بالحياة والنظر اليها
بمنظار شديد القنامة مع مطابقة ذلك لمظهر حركة الشاعر
وسبحه فى الحياة موشك أن يجره الى فقدان العقل ،
وضحك الناس يومذاك اذ حسبوها أفكوهة من أفاكيه
أستاذنا المازني رحمه الله فى مهاجمة زميله الشاعر
عبد الرحمن شكرى لكن الأيام صدقت رأى المازني فقد
حدثنى الصديق الأستاذ زكريا الحجاوى أنه رأى شكرى
فى بورسعيد قبل وفاته بسنوات وكان تعبير الحجاوى عنه
فى هذا الحديث أنه يعيش مجنونا ، ولكنه فى جنون
هادىء صامت •

شاعر الموشحات

من مشهورى أدباء الجيل الماضى الشاعر الضحافى الزجال المتصوف الوطنى محمود رمزى نظم وكنيته كانت أبا الوفاء ، وكان رحمه الله أحد أعيان ندوة القاياتى فى شهر رمضان المبارك وكنا نسمع المعجب والمطرب فيها من أشعاره وأزجاله ومواويله وأغانيه وموشحاته بصوت خفيض مستحب ونبرات كأنها نغمات قيثارة صغيرة • وقد كان واحدا ممن يجلسون على مقهى الفيشاوى بحى خان الخليلى فى رمضان وحوله طائفة من المعجبين به والمستمعين له والآخذين عنه ما يضرب بسهم فيه من فنون الأدب • ثم هو أخيرا صاحب أدب صوفى كثير يملأ صفحات كثيرة من ديوانه الضخم الذى طبع بعد وفاته بقليل •

وكان أبو الوفاء تتاجا تلتقى فيه الدماء المصرية بالسودانية بالتركية ويرتفع نسبه من جهة أبيه حتى يبلغ الحسين السبط عليه السلام • ولعل هذا وجه شبه يربط

بينه وبين أحمد شوقي الذى يلتقى فى منسبه الترك بالعرب.

وقد نشأ صاحبنا محبا للحرية وطينا مغاليا فى الوطنية
ذاق مرارة السجن والتشريد كثيرا بسبب بعض قصائده
وأزجاله ، وخلال الحرب العالمية الأولى وعلان الحماية على
مصر صب شاعرنا على الانجليز جام غضبه شعرا وزجلا ،
وخطر له فى أثناء تلك الحرب أن يطلق لجنته ، فظن
المحتلون أن فى الأمر سرا وأن اطلاقها يخفى وراءه
أغراضا سياسية فهاجمت منزله فى احدى قرى المنوفية
قوة من الجند بقيادة رجل انجليزى يقال له «ولسلى» وكان
مفتشا للداخلية فى ذلك العهد وسأل المفتش أبا الوفاء فى
لهجة صارمة :

— لماذا أطلقت لجنتك ؟

وأجاب أبو الوفاء :

— لأن هذا أمر يطلبه الدين •

وعاد المفتش يسأل :

— ولماذا لم تطلقها من قبل ؟

وأجاب أبو الوفاء :

- لأن الله هداني الى الصراط المستقيم أخيرا •
 لكن هذه الاجابات لم تقنع المفتش الانجليزى فأمر
 بحلق لحية وتقدم اليه الجند يحملون مقصاتهم وأمواسهم
 فأتوا على لحية ، وتسامع بعض الأدباء بالخبر فأرسل الى
 نظيم يعزبه فى لحية ويرثيها ورد عليه الشاعر بقصيدة
 طويلة اجمل عنوانها « احية شاعر تؤرق الاحتلال » وقال
 فيها :

يا من تصبته يوما لحيتى فمضى
 يلقي على غارضها أعطر الزهر
 خذها - اذا شئتها منى مكافأة

واستر بها مابدا من صفحة القمر
 واشتهر أبو الوفاء بالوفاء ، ولم يقف وفاؤه عند
 بنى الانسان ولكنه تعداهم الى الأماكن والأبنية ، وحسبك
 أن تعلم أن له قصيدة طويلة نظمها فى رثاء بار اللواء يوم
 هدم وكان مقهى أمام مبنى صحيفة الأهرام القديم يختلف
 اليه كثير من الأدباء والساسة فى ذلك العهد وقد سمي باسم
 اللواء الصحيفة التى كان يصدرها الحزب الوطنى برئاسة
 المرحوم مصطفى كامل باشا وتبلغ هذه المراثية الطريفة خمسا
 وستين بيتا قال فى بعضها :-

في ذمة العمران يا بار اللوا
 ويا بناء مشمخرا قد هوى
 سميت باسم لم يزل مقدسا
 ورمز روح للجهاد أسبا
 وراح مصطفى وراح حزبه
 يوم دعاء للخلود ربه
 وذهب الاسم مع المسمى
 وتركا في كل نفس همبا
 وكنت ندوة لأقطاب الأدب
 جل الذي أوحى اليهم زوهاب
 أذكر شوقي فيك وهو مدرسة
 وللقريض كعبة مقدسة
 أذكر فيك حافظا وصحبه
 وشعره ووده وجنبه
 وكم بدا في مجلس جاماتي
 حبيب أهل الفضل والرواة
 يطرفنا بتحفة جديدة
 أو قصة في بابها فريدة

يشيد فيها بمآثر العرب
 وخسير ما يكتب فيهم ما كتب
 وحذا الصاوى أو الشاوى
 كلاهما ليس له مساوى
 ومصطفى حمام حين يجلس
 محدثا تهفو إليه الأنفس
 وعزب يسمع والحنوى
 بينما حمام منشد وراو
 حفاظة لكل ما يسر
 وعندما يهجو لسان مر
 أشبه بالحاكى لأهل الفن
 والببلل المفرد المقتن
 كأنه فى ذاته كشكول
 تحار فى فنونه العقول
 ثم ذكر أنه شاهد الهدم بعينه ووصفه فقال : -
 ونزعوا السقوف والسلالم
 وقد رأيت ووقفت واجمعا

أَسْأَلُ عَنْ زَوَارِكِ الْأَطْلَالِ

وَلَمْ أَجِدْ مَنْ يَسْمَعُ السُّؤَالَ

وقد روى الرواة أنه كان سريع الارتجال وأن رويته في شعره كانت مثل ارتجاله فقلما يبدل كلمة بكلمة فمعظم شعره من وحي البديهة الحاضرة وفي ديوانه الذي نشر بعد وفاته بقليل قصيدة نظم نصفها ارتجالا مشاركة لصديقه المرحوم حسين شفيق المصري وكان هو الآخر زجالا وشاعرا وصاحب فكاهة ونادرة ، وقد التقيا حول مائدة وكأس وحرص شفيق صاحبه على الشراب ، لكن رمزي لم يستجب ، فقال شفيق كيف تكون شاعرا ولا تعاقرها فقال أبو الوفا دونك والارتجال لكي أثبت لك أنني أستطيع أن أقول الشعر بلا شراب فنطق شفيق بالمطلع وقفى على أثره رمزي ونظما معا في دقائق ما يزيد على ثلاثين بيتا والشئ الذي أريد أن ألفت النظر إليه أن محمود رمزي نظم هو شاعر الموشحات في عصرنا غير مدافع ولا منازع ، وبين يدي ديوانه أقلبه فأجد الشاعر قد اتخذ الموشحات مطية لأداء أغراضه الفنية ، فالشعر الصوفي للشاعر معظمه من الموشحات والشعر الوطني للشاعر

معظمه كذلك من الموشحات ودع عنك الشعر الوصفى
والغرامى .

ونجىء الى مرائى الشاعر فنجد معظمها كذلك من
الموشحات ففى رثاء سعد له موشحان طويلتان ، وفى رثاء
حبنى ناصف له كذلك موشح طويل يقول فيه : -

شمس حبنى غربت بعد الشروق
وانطوت بين أسارير النهار

كل انسان الى الموت مسوق
ليس للحى من الموت فرار

أين ذاك العلم ولى والادب .
أين من كان فنى أم اللغات

كان كالبدر مضيئاً واحتجب
واختفت فى القبر تلك البسمات

لم يكن ساد بمال أو نسب
انما اشعل نار الغرامات

ملاً الايام فخرا وذهب
فانطلقنا خلفه بالزفرات

زفرات أشبهت لمع البروق
وعيون تسبل الدمع الغزار
من قلوب من أساها فى حروق
أشعل الخطب نواحيها بنار

وكذلك مريته لأمير الشعراء أحمد شوقي وهى
كذلك موشحة •

وإذا كان محمود رمزى نظم الملقب بأبى الوفاء قد
مال الى فن التوشيح هذا الميل فلأن أذنه كانت موسيقية
ولأن نفسه كانت تحب الغناء وتميل الى سماع المغنين ولا
أدل على ذلك من مريته لفقيد الغناء الشيخ سلامة حجازى
ففيها من الاصطلاحات الفنية فى الموسيقى ما يكشف عن هذا
الاتجاه فى نفس شاعرنا الراحل •

وهذا الشاعر الموسيقي المتصوف الوطنى المتطرف
الذى يضم ديوانه الفخم الضخم عدة آلاف من الأبيات فى
تلك الأغراض ، هذا الشاعر كان هجاء له هجاء لطيف
الوقع وهجاء مقذع مسرف فى الاقتداع وقد أسمعنى قصيدة
من النوع الثانى فى هجاء أمير الشعراء أحمد شوقي

لا أذكر منها شيئاً الآن ، كما لا أذكر من هجائه الخفيف
اللطيف شيئاً •

ومات الشاعر أبو الوفاء محمود رمزي نظيم بسبب
حقنة من البسولين أعطى لها خطأ لأن جسمه حساس لهذا
النوع من الدواء ففضى نجه على عجل مع أنه كان مثال
التأني ، رحمه الله •

من ندوات العقاد

نريد أن نستعيد ندوة من ندوات العقاد ، ونسمع الى بعض ما يدور فى هذه الندوة العقادية من مسائل الفكر والثقافة ، وغير مسائل الفكر والثقافة .

ولن نستقصى تاريخ ندوات العقاد منذ كانت تعقد فى حديقة الحيوان بالجيزة فى أواسط العشرينات من هذا القرن ، وانما سنصرف هنا الى الندوة الأخيرة التى كانت تنعقد فى بيت العقاد منذ أوائل الخمسينات حتى اختاره الله الى جواره .

هذه الندوة كانت تعقد يوم الجمعة ، مدام العقاد فى القاهرة ، وما دام صحيحا معافى من المرض قادرا على استقبال روادها .

وعن هذه الندوة يقول أحد تلاميذ العقاد المرحوم محمود صالح عثمان فى كتابه « العقاد فى ندواته » .

(إذا أتيح لامرئ أن يمر من شارع شفيق غربال
بمصر الجديدة يوم جمعة عند منتصف العاشرة صباحا في
جميع أشهر العام عدا شهرين أحدهما في الشتاء والآخر
في الصيف فإنه ليجد أمام المنزل رقم ١٣ لفيفا من الناس
ينتظرون الاذن بالدخول منهم الشاب والشيخ والكهل •
ويطل عليهم رأس من الدور الثاني يدعوهم الى الدخول
فيسرعون الخطى ويرتقون الدرج حتى يستقروا في حجرة
متسعة سبقهم اليها بعض الاخوان وقد توسطهم عملاق
الفكر عباس العقاد ، وهكذا تبدأ الندوة قبل العاشرة لتنتهى
بعد ساعتين • وتستوعب الحجرة نحو أربعين بين جالس أو
واقف في الشرفة • ويجلس خارجها نحو الثلاثين تدار
عليهم أكواب تحمل عصير الفاكهة ثم أقذاح القهوة) •

ثم يقول الأستاذ عثمان (وتقاليد الندوة لا تتيح
التعرض للمسائل السياسية أو الدينية ولكنها ترحب
بالموضوعات الأدبية والفلسفية والتاريخية والاجتماعية
والفنية والعلمية ولكل انسان أن يتقدم بسؤاله في أى
موضوع من هذه الموضوعات فيتلقي الأجابة عنه فوراً) •
أما الحجرة التى ذكرها الأستاذ محمود وقال انها

متسعة فقد قُسمتْها بنفسى فوجدت أن مساحتها تقل عن أربعة أمتار في ثلاثة ، وجربت أقصى ما تسعه من المقاعد فوجدتها تسع لأقل قليلا من أربعين شخصا ، ويفف في الشرفة نحو خمسة وفي المدخل نحو ثلاثين ، وقد أحصينا عدد الحاضرين يوم أقام الرواد عيد ميلاد العقاد الأخير في سنة ألف وتسعمائة وثلاث وستين فوجدنا الحاضرين يكادون يبلغون مائتين غصت بهم غرفات شقة العقاد ، وغرفات الشقة المقابلة لها التي كان يستأجرها لأبناء أخيه وبناته .

وفي هذا الحفل الشهير غنى العقاد مع تلاميذه قصيدته « يوم ميلادى » التي يقول في مطلعها :-

يوم ميلادى تقدم وتأخر وتكلم

وفي هذا الحديث ، نحسب أن وصف النبوة وأشهر اجتماعاتها ليس الا تمهيدا لذكر بعض ما كان يقال فيها .
سئل العقاد عن معنى الكرم فقال « صحة النسب » ثم أورد قائلا ان من التفسيرات اللطيفة للآية الكريمة « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » أعلامكم قدرا وأفضلكم مالا . ثرى الى كلمة كرم بالانجليزية انها ترجع الى كلمة

ترجمتها الناسلة وهى المكونة للجنين وسبيل عن الفرق بين الكرم والسخاء فقال انك تدعو الرجل الى السخاء فيسخو ، ولكنه يكرم من ذات نفسه ، فالسخاء يأتى بعد تسخية ولكن الكرم ليس كذلك ولهذا ساغ أن يوصف الخالق بأنه كريم ولم يسغ أن يوصف بأنه السخى وسئل العقاد فى الندوة عن رأيه فى سيجموند فرويد فقال :

« ان فرويد عبقرى رائد لا شك فى ذلك الا أنه بالغ فى تأثير النوع أو الجنس على النفس الانسانية كما بالغ فى تفسير أشياء بالنفسية مع أن بعضها يمكن تفسيره بالبيولوجية وهذا ما أدركه خلفاؤه من بعده . كما بالغ فرويد أيضا فى تفسير الموت على انه حنين للعودة الى المادة مع أن الموت مناقض للحياة وهو كما يعبرون عنه « فقدان الشعور بالحياة » وفرويد نفسه يمكن اعتباره حالة نفسية فقد كانت له أطوار شاذة . كان يدمن التدخين وكان اذا أراد السفر ذهب الى المحطة ولبث بها ساعتين حتى يحين موعد القطار . وكانت أحلامه كلها عن أمه وعند فرويد أن الرهبة فشل فى الجنس ألا ترى أن الراهبة تجلى فى

أبهى زينة عند قبولها بالدير. كأنها عروس تزف .

وفي هذه الندوة استمع العقاد واستمعنا معه مناسبات
المرات الى السؤال التقليدى « لماذا لم تتزوج » وفيها
استمعنا مئات المرات الى جوابه التقليدى : أنا لا أكره المرأة
ولا أنفّر من الزواج ، لكن الزواج فى رأى - ككل شئ
لا ينتهى حتى تلتقى فيه الارادة بالوسيلة ، فلا يكفى
أن أريد لكى أتزوج ، ولا يكفى أن توجد الوسيلة وحدها
لكى أتزوج ولم تجتمع فى حياتى الارادة بالوسيلة ، والا
كنت تزوجت فكثيرا ما وجدت الارادة فى وقت لم توجد
فيه الوسيلة وكثيرا ما وجدت الوسيلة فى وقت لم تكن فيه
الارادة . وهو جواب كما ترى منطقى ، قوى المنطق ، وفى
الندوة سئل العقاد مرة عن أحب مؤلفاته اليه ، فقل :

ابن الرومى - حياته من شعره	فى الأدب
سعد زغلول	فى التراجم
عقريّة عمر	فى المبقرات
وحى الأربعين	فى الشعر
اللبّيب	فى الفلسفة

وسئل العقاد مرة عن ذكاء اليهود فذكر أنهم غير
مبرزين فيه وقال ان هناك قصة لطيفة تروى تدل على مقدار
الذكاء اليهودي : ان اخوة يوسف وهم من أئمة اليهود
عندما جاءوا أباهم بقميصه ملوثا بالدم الكذب فاتهم أمر هام
لا ينبغي أن يفوت شخصا عاديا في تدبير أمر ، فاتهم أن
يخرقوا قميصه حتى تظهر آثار أنياب الذئب فالقميص كان
سليما تماما ولقد قال لهم أبوهم : أى ذئب حكيم هذا الذى
يأكل يوسف ويترك القميص سليما بلا خرق •

ويسألونه مرة سؤالا محرجا ، لماذا أصدرت كتاب
الديوان مع صديقك المازنى تهاجم فيه أحمد شوقى ، ويقول
العقاد مجيبا :

كانت أبواب الصحف مغلقة أمامنا وكان أحمد شوقى
مديرا للإدارة العربية فى قصر الملك وتحت يده عشرون
ألف جنيه للمصاريف السرية لرؤساء تحرير الصحف
واستطاع بهذا أن يجذب الصحف الى صفه ، فكل صحيفة
تكتب شيئا فى نقد شعره تحرم من هذه المصاريف السرية ،
وكان له دعاة منتشرون فى المجالس يروجون لأدبه

ويدافعون عنه ، فلم يكن أماننا إذن سبيل سنوى كتابة
الديوان وإصداره .

ويسأله سائل عن الالحاد ، مظاهره وأسبابه ، فيقول
المقاد :

الملحد لا قدرة له على فهم الكون وتفسيره وهو غير
كامل الحس لأنه لا يستجيب لظروف الكون وأسراره
ومغيباته ولا يستطيع أن يدرك أن كل ذلك لا يمكن أن
يكون سلبيا وأول دلالة على الالحاد فقر فى الطبيعة الانسانية
وعدم قدرة على التفاعل مع عوامل الكون والاحساس بما
فيه ، ومشكلة الكون لا يمكن أن تحل بهذه البساطة
السلبية الا فى نفوس ضعاف القدرة . فى تاريخ الدنيا
تحسن باستجابة عوامل الطبيعة وتفسير لها . وفى داخل
الكون احساس بالارتباط بين النوع الانسانى والحوادث
الطبيعية وقد عبر عن هذا اينشتاين بقوله « أنا متضامن مع
الكون » والعلم لا يحل كل المشاكل لأنه يقوم على التجربة
والتجربة لا يمكن أن تستخدم فى كل شئ والجانب
الصوفى ليس عدما ولكنه طريقة للقياس ولا يكون وراءه
فراغ والقوة الغيبية موجودة فعلا بل لا يمكن الا أن تكون

موجودة • أما مقدار التوفيق بين العقل الشامل والعقل
الانسانى فهو موضع الحيرة غير أن هذا لا ينفى وجودها
أزلية كونية ونحن نقيسها بمقاييسنا لأننا لسنا آلهة •

ولا تكون الندوة دائما فلسفة وعلم بل انها أحيانا
قد تكون فكاهة وضحكا حين يروى العقاد أحدث نكتة
سمعا أو حين تروى له وحيد يأخذ فى التعقيب عليها
وتحليلها وقد يمتزج الجد بالفكاهة فمن ذلك أن يسأله
سائل : ما قولك فى قول الشاعر أو الناظم :

ومن غريب ما ترى العيتان

أن سؤال القبر بالسرياني

فيضحك العقاد قائلا ، السورانية لغة ناقصة ولا تملك
مقومات اللغة الكاملة فلا يمكن بل لا يعقل أن تكون لغة
الحساب فى القبر أو لغة الملائكة كما يقول بعض المنتسبين
الى الدين •

الارتجال والمرتلون

نمضي مع شعر الارتجال والشعراء المرتجلين ونقول
باديء الرأي اننا لا نرى للارتجال في حد ذاته مزية من
مزايا الفن وان كان مزية من مزايا القدرة والبراعة على
نظم الشعر وتقصيد القصيد ، لأن الشعر يبقى الى الأجيال
المقبلة بمقوماته الفنية من أفكار وخيالات وحسن صياغة
ورونق وتكون هذه مدخلة الى الخلود بغض النظر عن
الزمن الذي قضاه الشاعر في نظمها وتنقيدها ، لكننا مع
هذا لا نستطيع أن نكتم اعجابنا بالشعراء المرتجلين الذين
يهرعون الناس في المجالس والمنتديات بسرعة بديهم
ومن الشعراء من يتملأ بالفكرة فيجلس الى أقلامه وأوراقه
لتدوينها فتسيل الأبيات من أقلامه سيلًا بيتًا وراء
بيت وهؤلاء من نعب عنهم بأنهم ممن تتصل بديهم
برويتهم وبعض الشعراء يتخذ من ذلك طبعًا يلزمه كالشاعر
العراقي المعروف عبد المحسن الكاظمي الذي كان ينظم القصيدة
المثوية في مجلس واحد ويمليها على الجالسين معه املاء ،

ومن الشعراء من تتداوله الروية والارتجال ، ومن هؤلاء
العقاد الذئ نظم قصيدته فى ذكرى حافظ ابراهيم والتى
ألقىت فى حفل المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب
بالاسكندرية نظمها فى القطار فى المسافة ما بين مدينة بنها
ومدينة طنطا وهى لا تتجاوز أربعين كيلومترا يقطعها
القطار فى نحو نصف ساعة وكان من المقرر ألا يلقى
العقاد فى الحفل شعرا ثم جدد من الظروف ما اقتضى أن
يقول فنظم القصيدة على عجل والى ذلك يشير فى القصيدة
حيث يقول :

لم تكن حصتى من الحفل نظما
لا ولا قلته بوعده مدينا
غير أن المزار شط بحاد
ود لو كان حاضر الصوت فينا

وعدة أبيات هذه القصيدة المرتجلة بضعة وثلاثون
بيتا .

واشتهر بالارتجال كذلك فى عصرنا الشاعران

ابراهيم ناجى ومحمد الحناوى وأذكر أننا كنا نتناول طعام
 الغداء على مائدة المرحوم دسوقي أباطة باشا وبعد الغداء
 جلسنا فى غرفة الاستقبال نشرب القهوة فدخل علينا صاحب
 الدولة المرحوم اسماعيل صدقى باشا رئيس الوزراء
 فاستقبلناه بما يليق بمقامه من الاحترام وكنا نسمع أنه
 يعالج الأدب والشعر فسألناه أن يخوض معنا فى ميدانيهما
 فخاض وأجاد ، فاقترح ناجى أن نوجه إليه الشكر شعراً
 فأخذنا نرتجل فى ذلك قصيدة أبلغنا أبياتها أكثر من
 عشرين بيتاً فى بضع دقائق وكان الواحد منا ينظم بيتاً
 وما يكاد ينتهى من انشاده حتى يتلو الثانى بيتاً جديداً ثم
 الثالث من بعدهما فى سرعة عجيبة ولا أذكر من هذا
 النص المرتجل الآن شيئاً .

ومن أشهر شعر الارتجال بيتان لأبى تمام يروون أنه
 كان ينشد ممدوحه قوله :

أقدام عمرو فى ساحة حاتم

فى حلم أحنف فى ذكاء اياس

فقاطعه أحد الحاضرين وأظنه الكندى الفيلسوف لقد

شبهت الأمير بمن هم دونه من العرب فاستمر أبو تمام
ينشد قائلا:

لا تنكروا ضربى له من دونه
مثلا شرودا فى الندى والباس
فإنه قد ضرب الأقل لنوره
مثلا من المشكاة والنبراس

ثم قدم القصيدة بعد الانشاد فاذا اليتان ليسا فى
مسودتها الأصلية فعرفوا أنه قد أضافهما جوابا على اعتراض
المقترض .

وحكى ابن خلكان عن ابن القوطية أن الشاعر
الأندلسى يحيى بن هذيل لقيه منحدرا من ضيعة له بسفح
جبل قرطبة وهى بقاع من الأرض الطيبة المونقة وكان
ليحيى ضيعة هناك فلما تلاقيا قال يحيى لابن القوطية :
من أين أقبلت يا من لا شبيه له

ومن هو الشمس والدنيا له فلك

فرد ابن القوطية على الفور :

من منزل يعجب النساء. خلوته
وفيه ستر. على الفتاك ان فتكوا

قال يحيى فما تمالكت أن قبلت يده اذ كان شيخى
ومجده ودعوت له *

وفى ديوان أبى الطيب المتنبى كثير من شعر الارتجال
الذى خلقتها بعض المناسبات الطارئة. مما يدل على أن
أبا الطيب كان صاحب بديهة كما كان صاحب روية لكننا
نقتصر هنا على طريقة من طرائف إرتجالاته :-

وفد على سيف الدولة الحمدانى شاعر من أهل بغداد
ورفع اليه أبياتا يذكر فيها فقره ويزعم أنه رآها فى منامه
ومنها :

كان رسم الثناء منى شعرا
فوق حسنا كلؤلؤ فى نظام
لم يقدر لقاؤك اليوم فاستطب
بهرت فيه بالكتب والأقلام
فتفضل به ووقع فانى
ميوثق الحبال فى يد الأعدام

زادك الله رفعة وعلوا
وسرورا يبقى على الأيام

وقد دفع سيف الدولة الرقعة الى أبى الطيب ليوقع
فيها بما يقتضيه المقام ، فكان التوقيع هذه الأبيات المرتجلة
من شعر أبى الطيب :

قد سمعنا ما قلت فى الأحلام
وأنتناك بكرة فى المنام

واتبهن كما اتبعت بلا شيء
فكان النوال قدر الكلام

كنت فيما كتبته نائم العيـ
ن فهل كنت نائم الأقدام

أيها المشتكى - اذا قدر - الاعـ
دام هل رقدة مع الاعداد

افتح الجفن واترك القول فى النو
م وميز خطاب سيف الانام

الذى ليس عنه مغن ولا منـ
سه بديل ولا لما رام حام

كل آبائه كرام بنى الدن
يا ولكنه كريم الكرام

والارتجال هنا يكاد يكون صنو الروية اذ فيه اختيار
ألفاظ وتأنق أسلوب ، مع مقابلات وإشارات بلاغية تدل
على فطنة المتنبى وقوة مراتبه على نظم القصيد .

ونسبوا الى الفرزدق انه ارتجل قصيدة عدتها سبعة
وعشرون بيتا فى مدح على زين العابدين بن الحسين بن
على رضى الله عنهم ، حين كان هشام بن عبد الملك يطوف
باليث وأراد أن يصل الى الحجر الأسود ليستلمه فلم يقدر
عليه لكثرة الزحام فنصب له منبر وجلس عليه ينظر الى
الناس ومعه جماعة من أعيان أهل الشام فينما هو كذلك
اذ أقبل زين العابدين فطاف باليـث فلما انتهى الى الحجر
تنحى له الناس حتى استلم فقال : رجل من أهل الشام :

من هذا الذى قد هابه الناس هذه الهية ؟ فقال هشام
لا أعرفه وكان الفرزدق حاضرا فقال : أنا أعرفه فقال
الشامى : من هو يا أبا فراس ؟

فأجابه :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم
هذا التقى التقى الطاهر العلم

إذا رأته قریش قال قائلها
الى مكارم هذا ينتهى الكرم

ينمى الى ذروة العز التى قصرت
عن نيلها عرب الاسلام والعجم

يكاد يمسكه عرفان راحته
ركن الخطيم اذا ماجاء يستلم

فى كفه خيزران ريحه عبق
من كف أروع فى عرينه شمم

يفضى حياء ويفضى من مهابة
فما يكلم الا حين يتشم

مشتقة من رسول الله نبته
طابت عناصره والخيّم والشم

هذا ابن فاطمه ان كنت جاهله
بجده أنبياء الله قد ختموا

فليس قولك من هذا بضائره
العرب تعرف من أنكرت والمعجم

والنظم فى هذه القصيدة يؤكد الارتجال وان كان
بعض العلماء ينسبها الى غير الفرزدق •

ولكن عجيبة المعائب فى ميدان الارتجال ما فعله
الامام عمر بن الوردى حين رجع الى دمشق ودخل مجلس
أحد القضاة فلم يحتفل به أحد ولم يعرفوه وأُختب بعض
الحاضرين أن يعاكسه فانتظر حتى حضر رجلان يريد
أحدهما أن يبيع للآخر قطعة أرض وطلبوا من الوردى أن
يكتب لهما العقد فسأل ابن الوردى : أكتبه نظما أم ثرا
فزاد استهزاؤهم له وقالوا : بالنظم ، هات فسأل عن اسم
البائع ف قيل له : اسمه مالك بن أحمد بن الأزرق وعن
المشتري ف قيل له : هو محمد بن يونس بن سنقر •
الطرفان المتبايعان من دمشق ثم سأل عن مساحة الأرض
وعن حدودها فى الجهات الأربع وعن أسماء الجيران ثم

سأل كذلك عن الثمن المعجل منه والمؤجل ثم تناول الورقة
وكتب العقد هكذا :

باسم اله الخلق هذا ما اشترى
محمد بن يونس بن سنقرا
من مالك بن أحمد بن الأزرق
كلاهما قد عرفا من جلق
فباعه قطعة أرض واقعة
بكورة الفوطة وهي جامعة
بشجر مختلف الأجناس
والبيع للأرض مع الفراس
وذرع هذى الأرض بالذراع
عشرون بالطول بلا نزاع
وذرعها بالعرض أيضا عشرة
وهو ذراع باليد المعتبرة
وحدها القبلى مالك التقى
وحائز الرومى حد المشرق

ومن شمال ملك أولاد على
والقرب ملك عامر بن جهيل

وهذه تعرف من قديم
بأنها قطعة بيت الرومي

يما صحيحا لازما شرعيا
ثم شراء قاطعا مرعيا

بشمن مبلغه من فضه
وازنة ، جيدة ، مبيضه

جارية للناس في المعاملة
الفان منها النصف ألف كاملة

قبضها البائع منه وافية
فعادت الذمة منه خالية

وسلم الأرض الى من اشترى
فقبض القطعة منه وجرى

بينهما بالبدن التفرق
طوعا فما لا حد تعلق

ثم ضمان الدرك المشهور
فيه على بائعه المذكور

وأشهدا عليهما بذلك في
رابع عشر رمضان الأشرف

من عام سبعمائة وعشرة
من بعد خمسة تليها الهجره

والحمد لله وصلى ربي
على النبي وآله والصاحب

يشهد بالضمون من هذا عمر
ابن المظفر المعري اذ حضر

وقد جمعت هذه المنظومة المرتجلة كل ما يجب أن
يكون في العقد من أسماء وحدود وثمان وشهود وتاريخ
وهي مقدرة في النظم لابن الوردى ولا شك .

عاجت الأقدار الأقدار

نقف الآن مع أديب غريب الأطوار ، لم يشتهر الا
بغير الأدب مع أنه شاعر وزجال وصاحب مواويل ومقامات
ومقالات ... وتعالوا نطو الزمن القهقري ثلاثين سنة
أو أقل قليلا وكنت اذ ذاك مديرا لإدارة المخازن والورش
والعقود والمشتريات بمصلحة البريد المصرية جئت اليها
منقولا من وزارة الأوقاف ولم أكد أستقر على الكرسي في
عملي الجديد حتى فاجأتني مشاكل الاختتام والأكياس
والطرود وصناديق البريد ، وأحاطت بي من كل جانب
احاطة السوار بالمعصم ، ووجدت نفسي في دوامة من العمل
تستهلك عقلي ونفسي وجسمي استهلاكا وجاءني رئيس
المخزن العام يشكو متعبدا مهملا يتأخر في اتمام ما يوكل
اليه من الأعمال ولم تفلح في تقويم اعوجاجه غرامة ولا
تهديد بفسخ عقد ، فقلت لعل كلمة لجنة أتحدث بها اليه
تفلح في اصلاحه وتقويم ما اعوج من سلوكه وطلبت من

رئيس المخزن العام أن يدعو للقائى وجاء الرجل فاذا هو
فى منتصف الطريق بين الشباب والشيخوخة ، يدع لحيته
مطلقة فيبدو شعرها مختلطا بين البياض والاسود وثوبه
زائت ، وفى عينيه بريق ذكاء وقلت للرجل ماخطبك؟
قال ان ظروفى المالية لاساعدنى على أن أفى بتعهدى لكم
فى حينه فلو تأخرتم على قليلا لسلمتكم ما تريدون متقنا
غاية الاتقان . أنا كثير العيال قليل الرزق ثم بادرنى بأنه
شاعر وتلا على بيتا ما زلت أذكره الى الآن يقول فيه :

انما نكبتى وليدة حظى

فعلاج الأقدار بالأقدار

قلت : مالك تنظر الى الدنيا بمنظار أسود هكذا
صحيح أن الأقدار بيد الله ولكن عليك أن تسعى ما وسعت
السعى ، ثم ترضى بعد ذلك بالأقدار وأعجبني منه حسن
القائه هذا الشعر ووضوح نبراته مع تمثيل المعنى عند
اللقاء فقال لى : اننى ماء ركد ، وأزهرى قد فسد ، يعنى أنه
كان يطلب العلم فى الأزهر مدة من الزمن ثم لم يستطع أن
يستمر فى طلب العلم لحاجته الى الاتفاق على نفسه وذويه .

وجاءنى المسئول عن أخبار خواتم البريد والرجل
جالس معى يخبرنى أن السوق خالية من هذا النوع من
الأخبار وأن الموجود بالمخازن لا يكاد يكفى مكاتب المصلحة
المنبثة فى أنحاء البلاد الا شهرا أو بعض شهر ٠٠٠ وكان
خبرا هزنى لأن انقطاع الأخبار يعنى ببساطة أن مكاتب
البريد مهددة بالتوقف وكانت هذه الأخبار من نوع خاص
يمتزج فيه اللون الأسود بالزيت ولها درجة ثبوت على
الورق حددتها مواصفات قررها معمل الحكومة الكيميائى
الذى كان تابعا لمصلحة الكيمياء ، وكان يشرف عليها فى
ذلك الحين أستاذنا الدكتور أحمد زكى رئيس تحرير مجلة
العربى الآن ٠٠٠٠

هزنى الخبر كما قلت هنا عنيفا لأنه يجىء بعد تعيينى
فى وظيفتى بفترة وجيزة وأنه امتحان لقدرتى على توفير
المواد المطلوبة لمكاتب البريد ، ولاحظ الرجل اضطرابى
فقال أنا أستطيع أن أصنع لك أخبارا تفوق الأخبار التى
تستوردونها من الخارج وتكون مطابقة تمام المطابقة
للمواصفات التى قررها معمل الحكومة الكيميائى لولا أن
عقبة واحدة تعترضنى ، فأسرعت أسأله : وما هى فأجاب

المال اللازم لإعداد كمية من هذه الأخبار. قلت إن عقبة
 المال تهون وسأهونها عليك بالفعل الآن ونقدته. خمسة
 جنيهات على شريطة أن يصنع الأخبار أمام مكتبي. وعلى
 مرأى منى ، وصدع بالأمر ؛ وأعد بخمسة جنيهات أخباراً
 كنا نشترىها من قبل بعشرين جنيهاً . فبضت إلى بمعمل
 الكيخياء استوثق من تمام مطابقتها للمواصفات وجاء الرد
 بالمطابقة فاشتريت منه الكمية التي صنعها بعشرة جنيهات ؛
 أعتى اننى أعطيته خمسة جنيهات أخرى ربها خالصاً له .
 وكان هذا المبلغ على تفاهته بداية لإصلاح أمره ؛ وصلاحي
 حاله فاتت عش حتى اتسع دكانه وكان دكان زنكوغراف
 واشترى مطبعة كانت تعد في يوم ما من أكبر مطابع القاهرة
 وأقبلت الدنيا عليه ، وعالجت الأقدار الأقدار كما كان يقول ،
 في بيته القديم :

انما نكبتى وليدة حظى
 فعلاج الأقدار بالأقدار

قلت في صدر هذا الحديث ان هذا الرجل كان
 شاعراً وزجلاً وصاحب مقامات ومواويل وأقول الآن انه
 أقبلت عليه الدنيا وأحب أن يجد لمواهبه متنفساً فأنشياً

ضعيفة أسبوعية ساخرة منها « الصاروخ » وكان يحرر
معظمها فيكتب في العدد الواحد مقالا ومقامة ورجلا
وشعرا

وعن هذه الصحيفة الأسبوعية أختار الآن أمثلة من
من مؤلفاته في هذه الميادين من مقامة له عنوانها « المفتقة
لها مقامة » والمفتقة طعام أشبه ما يكون بالمرعى مصنوعة من
الصل الأسنود مع بعض النباتات والأعشاب يأكلها من
يطلب السمعة وكانت السمعة مطلب النساء الى عهد قريب
... ومقامة هذا الأديب تسخر من طالبات السمعة سخرية
لاذعة ذكر فيها انه تزوج فتاة رشيقة نحيفة القوام
اسمها سميحة يقول فيها : وقد كنت مبسوطة من نحافتها
مسرورا من قصر قامتها ففي كسوتها ثقل التكاليف وفي
أكلها تمنع بنصف الرغيف . الا أن جارة لعينة قالت لها
أتحبين أن تكوني سميحة ؟ فالرجال ليس لهم أمان ولا
يجبون الا السمان فوجدت سميحة ضالتها في جارتها
وعملت الجارة على ترويج تجارتها واختصتها كل يوم
ببطرمان من مخلوطة بلون القطران لها رائحة الملوحة
المعتقة يسمونها المفتقة وأخذت سميحة تأكل منها بشراهة

لا تطاق حتى أصبحت امرأة على أوسع نطاق ، وأصبح
 اللحم على جسمها وفيرا وغدت على الأرض شيئا كثيرا .
 فقلت لها يا أم ضرغام اقللى
 فقد صرت فوق الأرض عبثا على الأرض
 رويدك قد أصبحت شيئا مربعا
 فلم أدر طولا فى محيطك من عرض .
 ونصحتها بأن تقلع عن هذه الحماقة وأن تعود الى
 عهد الرشاقة ولكنها هزت كتفها وبان الغضب عليها
 فقلت لها : -

قد كنت يوم بك التقيت
 نحيفة كالضفدعة
 واليوم لست مبالغا
 لا تنقصى عن أربعة
 فالكرش يملأ غرفة
 يبدو كلك الصومعة
 والسقف من حول به
 يبدى لسيرك طرقعه

انى لأظهر فى جوار
ك يا سميحة امه
أخشى على ضرغام أن
تنسى وتكلىنى معه !

ومن موايله قوله فى احدى السابحات الفاتنات :
يادى الجمال اللى يسبى العقل ويموت
يا دى الرموش التى تشفى القلب وتفوت
يا دى العيون اللى خلت عقلى يفوت
البحر ذاته لقاكى عايمه ع الميه
علشان عيونك يا حلوه ميه احلوت !
ومن أزجاله قوله :

أنا الأديب الأدبائى
والفن أحسن هواياتى
ما يهنش ماضى وآتى
وقلبى ملان بالايمان
اللى خلقنى ما ينسانى
أكل رغيى بيحى التسانى

والحمد كلمة على لساني
والناس ما يليق بالجدعان
ومشيت على راس الدنيا .
أدوس عليهما بالعينه
ما تركت فيها ولا لينة
الا أدوسها كمان وكمان

ولهذا الأديب في كل ميدان من ميسادينه الشعر
والزجل والمقامة والموال انتاج يمكن أن يملأ كتباً فحجذا
لو جمعها ونشرها وهو الآن يستطيع ذلك بعد أن زالت
نكبته التي كانت وليدة حظه وعاجلت الأقدار الأقدار كما
كان يطلب .

الارتجال

تحدث عن البديهة الحاضرة والفقنة اليقظة، والذهن المتوقد اللاقط، فنذكر طرفا من أطرف ما جاءت به القرائح على البديهة، وبين يدي هذا الحديث نذكر ما يقصدونه بالارتجال وما يعضون به البديهة .

الارتجال فى أصل اللغة السهولة والانصباب ومنه شعر رجل اذا كان سبطا غير جعد أو هو مأخوذ من قولهم نزل الرجل البشر من غير جبل برجليه فكأنهم شسبهوا اقتدار الشاعر على القول من غير أهبة واستعداد باقتدار نازل البشر على النزول الى الماء من غير جبل ولا آلة .

أما البديهة فقد رأى بعضهم أنهم من بده بمعنى بدء، وقال صاحب المحيط بدهه بالأمر فاجأه به والبديهة أول كل شيء .

والبديهة والارتجال على هذا متقاربان الا أن أهل

الصناعة كما يقول على بن ظافر الأسدي صاحب كتاب
« بدائع البدائنه » ميزوا كل واحد منهما عن الآخر ،
وخلصه ما نقله ابن ظافر عن أهل الصناعة هؤلاء أن
البديهة أدنى مرتبة من الارتجال وأقل منه طبقة .

فالارتجال في نظره هو « أن ينظم الشاعر ما ينظم
في أسرع من خطف البارق واختطاف السارق وأسرع من
التماح العاشق ونفوذ المارق ، حتى يخال ما يعمل محفوظا
أو مرثيا ملحوظا من غير حاجة الى كتابة أو تعلل بتقفية .

أما البديهة فهي « أن ينزل الشاعر عن هذه الطبقة
قليلا ويفكر مقصرا لا مطيلا » وابن ظافر الأسدي صاحب
بدائع البدائنه هو وزير الأشرف أحد بني أيوب وقد تبرم
ابن ظافر بالوزارة وكره الامارة فأراد أن يفصل عنهما
وتردد مدة حتى رأى أحد أتباعه في المنام أن شيخا أوقفه
في جامع دمشق وقال له أجز :

ان ابن ظافر سوف يظـ

فر بالذي يرجوه عاجل

فقال :

ظفرت عداة بخبيسة

وغدا لما قد شاء عاجل

وتحقق هذا الحلم بنيل الشيخ ابن ظافر ما أراد فما هو الا أن وفر في خلدته أن يؤلف كتابا عن الاجازة والبديهة والارتجال وما حول ذلك وتحقيق ما أمله من ذلك فألف هذا الكتاب .

كتاب ابن ظافر هذا لطيف جدا ، فقد جمع فيه ما تفرق في مختلف كتب الأدب والتاريخ عن الاجازات والارتجالات والأجوبة السريعة وبدائع التمليط . . . والتمليط أن يتفق شاعران أو أكثر على تجريب خواطرهم في العمل في معنى واحد أو هو أن يتساجل الشاعران فيصنع هذا قسيما وهذا قسيما لينظر أيهما ينقطع قبل صاحبه ، ومن أشهر أمثلة التمليط ما وقع بين امرئ القيس والحصارث بن قتادة الشكري المعروف بالتوأم الشكري وقد بدأه امرؤ القيس وجرى الشعر كالآتي :

أحار ، ترى بريقا هب وهنا

كلوا معجوس تستعز استعازا

أرقت له ونام أبو شريح
إذا ما قلت قد هدا استطارا

كأن حنينه والرعد فيه
عشر وله لاقت عشرا

فلم يترك بطن الأرض ظيما
ولم يترك بجلتها حمارا

فلما أن دنا لقفا أضاح
وهت أعجاز ريقه فخارا

وقد رووا أن امرأ القيس كان يقول الصدور غير
ملتزم بقافية «و» الذي عز عليه أن يستمر في التمليط .

وتمليط عبد الجبار بن حمديس الصقلي الشاعر
المعروف روى أنه كان في أشيلية يوما ودعا السلطان فلما
جلس في جفبرته قال له : افتح الطاق الذي يليك ففتحه
فاذا بكوز زجاج على بعد والنار تلوح من بابيه وواقده
يفتحهما تارة ويسددهما أخرى ثم أدام يسد أحدهما وفتح
الآخر فحين تأملتتهما قال لي : ملط : « انظرهما في الظلام
قد نجيا » .

فقلت : كما : رنا فى الدجنة الأسد
فقال : يفتح عينيه ثم يطبقهما
فقلت : فعل امرىء فى جفونه رمد
فقال : فابتزه الدهر نور واحدة
فقلت : وهل نجا من صروفه أحد ؟

ومن لطائف البديهة مارواه عن شاعرين من معاصريه
حين رأيا أذ، يقول فى الحمام على البديهة وأن يحكم حكم
بينهما بالفضل لمن يرى فقال الأول :

لله يوم بحمام نعمت به
والماء من حوضها ما بيننا جار
كانه فوق شفاف الرخام بها
ماء يسيل على أثواب قصار
فانتقدوا عليه تشبيهه الماء بالماء واستبردوا ما أتى به
فقال الآخر :

وشعر أوقد الطبع الذكاء له
أو كاد يحرقه من فرط ادّ

أقام يجهد أياما رويته

وفسر الماء بعد الجهد بالماء

فسار الشطر الثاني من البيت الأخير مثلا لمن يفسر

الشيء بمثله .

وقد كد ابن ظافر نفسه ، كثيرا جدا ، فجمع كثيرا
مما قاله الشعراء في مجالسهم بديهة وارتجالا واجازة
وتمليطا ، وخص نفسه وعصره بكثير مما قال ، وكثير مما
روى ولكن هل نستطيع أن نزن هذا الشعر المتعجل
السريع بشعر الروية واعمال الفكر والموازنة بين الألفاظ
وتفضيل بعضها على بعض ؟ وهل يمكن أن تكون هذه
الأشعار المرتجلة في مستوى بلاغتها مقارنة للأشعار الأخرى
في سماء البلاغة والبيان ؟

الحق ان هذا الشعر السريع يخلو كثير منه من
التجويد الذي تفرضه الروية الهادئة والنظر المتأمل المطيل
ولكن هذا لا يمننا أن نقول انه أصدق تمثيلا للشعراء
وعصورهم ومجالسهم من غيره ، اذ فيه ينطلقون على
سجيتهم ويتحدثون بما يريدون دون تزويق أو افتعال ،

ولقربه من مجال الحياة اليومية أى أنه يباشر وقائع الحياة مباشرة ، فانه يجيء لطيفا مقبولا ويجيء قطعا لا طول فيها ولا امتداد فيسهل حفظها وروايتها وقد يصدف موقعا من النفوس فتكبره وتستعظمه من ذلك ما رووا من أن جماعة جلسوا وأخذوا فى ذم الدهر واخثائه على أهل الفضل والأدب واذا بكلاب الصيد لبعض الأثرياء قد أبرزت فى الوشى والديباج والحرير فقال أحدهم :

من كان يكسو الكلب وشـ

يا ثم يقنع لى بجلدى

وطلب من بعض الحاضرين اجازته أى قول بيت أو أكثر بوزنه وقافيته فقال :

الكلب خير عنده

منى وخير منه عندى

فجاء البيت الثانى رائعا ولطيفا فاستحسنه كل الحاضرين •

وقد حقق الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم كتاب ابن ظافر وبذل فيه جهدا مشكورا •

وعصرنا الحديث ملىء بالبداية والارتجالات والاجازة

والتعليق ، بل ان ما قيل فيه يملأ عشرات المجلدات من
مثل مجلد ابن ظافر هذا ولكننا لا نغنى بقله وإثباته ولا
نهتم بروايته وحفظه فيضيع .

وفي العراق حضرنا ندوة لطيفة بمنزل الصديق
الشاعر هلال ناجي فنظم الحاضرون قصيدة طويلة فكاهية
أثبتها بعضهم في دفتر عنده وقالوا ان مثل هذه الندوة في
العراق كثير ، وفي الكويت مساجلات ومبادعات وارتجالات
وتعليق ، وفي مصر ، لا تمر جلسة واحدة من جلسات
لجنة الشعر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب من
ارتجال وبديهة وتعليق واجازة من محمود غنيم وحسن
كامل الصيرفي ومحمد عبد الغني حسن وصالح جودت
وروحية القليني وعادل النضبان . وتجيء طرافة أمثال
هذه الأشعار من أنها مطابقة لمناسبتها مأخوذة من واقعها .

فهل نطمح يوماً أن نرى كتاباً أو كتباً ككتاب ابن
ظافر الأزدي يسجل بدائع البدائع لأحمد السقاف ومحمد
ملا حسين وعبد الله سنان وخالد سعود وإبراهيم الحضرائي
في الكويت ولهلال ناجي وحازم سعيد أحمد وعبد الله
الجبوري وخالد الشوافي في العراق وحسن غنيم الله

القرشى ، وعبد العزيز الرفاعي وأحمد عمر عباس
وعبد العزيز الربيعي في المملكة العربية السعودية وحسن
كامل الصيرفي ومحمود غنيم وصالح جودت في مصر وغير
هؤلاء من الشعراء في أرجاء الوطن العربي الكبير •

هو مأمل متواضع ، ونرجو أن يحققه الله لخدمة
أدب عصرنا •

والحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا
لنهدى لولا أن هدانا الله •

الموضى الوكيل

الفهرس

الموضوع ورقم الصحيفة

الاهداء وكلمة تقديم ٣ - ٤

مى ومحبوها :

بعض محبيها ، من مى ٩ ، حب الرافى لها ٥ - ١٢
حب العقاد ، صفة مى بلسان بعض محبيها

تزييف التواريخ :

موت ابن الرومى وموت المتنبى ١٣ - ١٨

ابن مفرغ الحميرى :

من هو ؟ مجاؤه لبعض الامويين ، عفايه ١٩ - ٢٦
بعض الغزل المخلوط بالهجاء

المبقرية العربية :

ابن القرية ، كيف ظهر ، وكيف كانت ٢٧ - ٣٤
آخرته مع الحجاج ؟ الشك فى وجوده
معنى كلمة الامى

مطالعات وذكريات - ٢٨٩

المتنبى يتحدث عن نفسه :

فخره بنفسه ، بشعره ، بشجاعته ٣٥ - ٤٤
موازلة بينه وبين الشعراء ، قوافيه
تلبس بمدوحه شرفا ومجدا .

من شعراء الكويت الرواد :

فهد المسكر ، طبيعة تشاؤمه ٢٥ - ٥٣
مناقشة رأى الأستاذ عبد الله زكريا الأنصاري -
خالد الفرج ، طبقة شعراء ، شعراء
القومي والوطني
صقر الشبيب ، خصائص شعراء ، صلته بابن الرومي

شبيبة وكهولة :

عشق الكهول ، الشبيب والنساء ٥٥ - ٦٥
طاهر الجبلاوي والغزل ، غرام جيتى
ولوم المقادله - غرام المقاد
فى الشيخوخة - اعتذاره لجيتى
قصة ابرويز وابنه وزوجته

مع الجاحظ :

لمى سمى الجاحظ ؟ سخرية الجاحظ ٦٧ - ٧٦
البيان والتبيين ، مدرسة الجاحظ ،
رسالة التريب والتدوير

من عبث الصبا :

تمثيلية قصيرة صنعها القدر ، نشرها ٧٧ - ٨٢
يغير صورتها التي وقعت بها ، عبث
الأصدقاء ، تصويب لا بد منه .

شعراء يتهمون ويحاكمون :

ابن مفرغ - الحجاج والتميزي - المنذر ٨٣ - ٩٢
ابن المغيرة والمأمون - عمارة اليمنى
ورثاء دولة الفاطميين - عبد الحليم
المصرى وهجاء عباس الثاني وشوقي - المنفلوطى
وهجاء الخديوى -

حفلة إزاحة الجبة :

شيخ يلبس زى الأفندية - ٩٣ - ١٠٠
الاحتفال به - تشيد لكاهى -
قصيدة المحتفل به - بعض القصائد
فى الحفل - مقامة هلال شتا

ولاء الحيوان :

ابن عنين يرثى حمارة - رثاء عجل ١٠١ - ١١٠
أحمد القرعيش - قصيدة ابن العلاف
فى رثاء هر - ببغاء أحمد بن يوسف -
قصيدة لمحمد الأسمر فى رثاء خروف
وتعليق شعري لعلى الجندى

الموضوع

رقم الصحيفة

التصنيف والتعريف :

معنى التصنيف ومعنى التحريف ، التحريف ، ١١١ - ١١٩
فى الصحافة ، لطائف من التصنيف والتحريف
بينى وبين كامل كيلانى - كثرة التصنيف
والتحريف فى التراث - الحاجة الى التحقيق
والمحققين - الحجاج والاصلاح اللغوى ،
كتاب التصنيف للمسكرى - امتحان فى
التصنيف والتحريف

فنون وشجون :

أبيات لربيعة الرقى - البخل ليس ١٢٨ - ١٢١
صفة ايجابية ولكنه خلو من الكرم
أبيات لبشار فى ابن قزعة ، قيمتها
الفنية ، ابن الرومى وأبو الصقر الشيبانى

الحجاج بن يوسف :

الحجاج وقتل سعيد بن جبيل ، الحجاج ١٣٩ - ١٠٠٠
والفصاحة ، الحجاج الخطيب المفلح ،
الحجاج واصلاح اللغة المرئية
الحجاج نهب لفوضى تاريخية ، قصة
التمنية فى قصيدة حافظ ابراهيم
العمرية -

الحوار :

الحوار فى القرآن الكريم ، أمثال عن ١٥١ - ١٥١

الحمار ، نكر صوت الحمار ، المعراى
 القافلة والمعراى الحمار ، رأى للعقاد
 فى ذلك ، أشهر الحمير ، الحمار لم
 يكن محترقا عند أجدادنا العرب
 قصيدة ابن عنيى فى رثاء حمارة ،
 حمار خمينيز وحمار الحكيم

أبيات الشعراء :

بيت عبد الحميد الديب - بيت أحمد . . . ١٥٣ - ١٦٦
 الصافى النجفى وتعليق لحازم
 سعيد أحمد - بيت ابن الرومى وقصيدته
 وشكواه - بيت العقاد - بيت عام
 فى شعر العقاد .

الكلب :

الكلب فى القرآن الكريم - أشهر الكلاب . . . ١٦٧ - ١٧٨
 أبيات لمحمود غنيم فى وصف كلب بوليسى -
 أبيات للشاعر الجزار فى كلاب الحيوان
 وكلاب البشر - ابن الرومى
 يواذن بين بعض من هجأهم وبين الكلاب
 كتاب فى تفصيل الكلاب على بعض الناس .
 جبن الكلب مظهر لكرم صاحبه - الكلب
 الوفى - صوت الكلاب - ييجو كلب
 العقاد - تكريم الكلاب . . .

الشعر التائه :

- رأى لعبد الغنى حسنى - أشهر القصائد ١٧٩ - ١٩٢
الحائرة فى الأندلس العربى - السعدية -
- مدح على زين العابدين - ابن الرومى
ينتهي به رواة الشعر - الفرزدق والانتهاج

الشعر العلمنتيشى :

- حسنى شليق المصرى - يرمم التوتسى ١٩٣ - ٢٠٤
المنبهجة - الشيخ عامر الأنطوطى
وقصائد الطيبخ -

المدح فى الشعر :

- المدح وتصوير المثل العليا - المدح موضوع ٢٠٥ - ٢١٣
لا يمكن طرحه من الشعر العربى - لماذا
ننكر المدح اذن ؟ - معروف الرصافى
وأمداحه لمظهر الشاوى -

تمنح جنيهان من الغيرات :

- قصة فى وزارة الأوقاف - تحكيم ٢١٥ - ٢٢٢
أدبى - مناقشات نحوية ولغوية
أبيات حول القصة

المسبحة :

- المسايخ فى رمضان - المسبحة ٢٢٣ - ٢٣١

واشتقاقها - المسايح وأنواعها
 مسايح المسلمين ومسايح غيرهم -
 قصيدة للشاعر حسن البدرى العجazy
 فى هجاء بعض من يحملون المسبحة
 أبيات لحافظ إبراهيم - أبيات لمحمود
 حسن اسماعيل فى مدح فاروق بأنه
 يحمل مسبحة - نقدها وتعليق عليها

مع شاعر شاب .

قصته ، شعره ، نهايته ٢٣٣ - ٢٤٠
 الأليمة ، بعض قصائده

شاعر الموشحات :

محمود رمزى نظم ، موشحاته ٢٤١ - ٢٤٩
 قضية اطالة لحيته وحلقها ،
 رثاؤه لبار اللواد بعد هدمه ،

من ندوات العقاد :

أحدث ندوات العقاد - أسئلة ٢٥١ - ٢٥٨
 وأجوبة - رأى فرويد - أحب
 كتب العقاد اليه - رأى فى الالحاد
 والملحدين - رأى فى اللغة السريالية

الارتجال والمرتجلون :

معنى الارتجال ، البديهة والارتجال ٢٧٠ - ٢٧٠
 منظومة ابن الوردى فى مبايعة .

رقم الصفحة

الموضوع

عالجت الأقدار الأقدار :

قصة شاعر زجال ، صناعة الطبع ٢٧٨ - ٢٧٩
والحبر ، أثرى بعد فقر ، جزء من
مقامة له ، موال له ، زجل .

الارتجال :

معناه وأصله في اللغة ، البديهة ٢٧٩ - ٢٨٧
كتاب ابن طاهر - التعليق وبعض
نماذجه ، ندوات ارتجال وتعليق
واجازة في البلاد العربية

وزارة الثقافة الحياة المصرية العامة للكتاب

المركز الرئيسي : ١١١٧ شارع كورنيش النيل - القاهرة - ج.ع.م.
تليفون : ٧١٠٥٥ / ٧١٠٥٨ تليفونيا : بانثرو

المنشأة العامة للتوزيع : ١٧ شارع نصر النيل - القاهرة - ج.ع.م.
تليفون : ٤٥٥٨٩ / ٤٧٤٣٦

مكتبات القومية للتوزيع في ج.ع.م.

القاهرة

٣٦ شارع شريف	ت : ٤٠٠١٢	١٩ شارع ٢٦ يوليو	ت : ٥٥٠٣٢
٥ ميدان مراد	ت : ٤٦٣٨٣	٢٢ شارع الجمهورية	ت : ٩١٤٢٢٣
١٣ شارع الميدان	ت : ٢١١٨٧	١٠ الباب الأخضر بالحسين	ت : ٩١٣٤٤٧
الاسكندرية : ٤٩ شارع سعد زغلول	٢٢٩٢٥	البيطرة : ١ ميدان الجزيرة	ت : ٨٩٨٣١١
منهوب : شارع عبد السلام الشاذل	٢٦٠٥	القليوبية : شارع ابن عسب	ت : ٤٤٥٤٤
طنطا : ميدان الساعة	٢٥٩٤	السيوط : شارع الجمهورية	ت : ٢٠٣٢٢
المنيا الكبرى : ميدان المحلة	٤٢٧٧	المنيا : سوق القياض	ت : ٢٩٣٠
المنصورة : أول شارع القورة	٢٨٦٤		

مراكز التوزيع خارج ج.ع.م.

لبنان : الشركة القومية للتوزيع - بيروت - شارع سوريا بناية أبناء صمدى وصالحه
السراي : الشركة القومية للتوزيع - بعلبك - ميدان التحرير - عمارة فاطمة

توكيلات ومجالس خارج ج.ع.م.

الكويت : وكالة المطبوعات ٢٧ شارع فهد السالم بالكويت
الأردن : مكتبة المحاسب - عمان
ليبيا : محمود طواف الشويدي - طرابلس
الغوليسيا : عبد الله محمد الميخروس - جاكارتا
تونس : الشركة التونسية للتوزيع ٥ شارع لمرطاج - تونس
الجزائر : ٩٢ شارع ديلوش مراد بالجزائر العاصمة
الغرب : للمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع ٤٢ - ٤١ شارع المكي - الاحباس - الدار البيضاء

موريتانيا : مكتبة بركل - ليدن

الحياة المصرية العامة للكتاب

في مكتبات القومية للتوزيع

المكتبة الثقافية

جامعة حرة

- خلاصة الفكر القومي والإنساني
- تجعل المعرفة متعة تعمق الشعور بالحياة .. وسلاحاً يساعد على الانتصار في معركة الحياة

يصدر قريباً :

لبنة المستقبل

إعداد

دكتور محمد مصطفى الفولي

التمث. ١٠ قروش

Bibliotheca Alexandrina



0274508

مكتبة الإسكندرية
Alexandria Library



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب